بسم الله الرحمن الرحيم

الخير والشر

أخبار اليوم

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله والصلاة والسلام على
سيدنا رسول الله.
أسأل الله أن تكون هذه الكتب
التي ستصدر بعد مقتنياتي خطوة على
طريق الهدى ونوراً يضيء الطريق للإيمان
والله نسأل الهداية والتوفيق

محمد متولي الشعراوي

الغلاف بريشة
الفنان : سيد عبدالفتاح

الإخراج الفني
عبد الكريم محمود

الفصل الأول



الجمال فى الكون

الخير والشر قضية تثير جدلا كثيرا ، وسبب هذا الجدل هو عدم فهم المعنى الحقيقى للحياة ، ذلك أن الناس - إلا القليل منهم - قد ركزوا مقاييسهم على أن الحياة الدنيا هى الغاية ، ولذلك تعبوا وأتعبوا غيرهم . وكل من أخذ الدنيا على أنها غاية ، أتعبه الله سبحانه وتعالى فيها ، ثم لم يأخذ شيئا .

إن الدنيا غاية بالنسبة لغير المؤمن فقط ، لأنه لا يعتقد أن هناك آخرة ، وهو لا يعتقد أن هناك حياة أبدية ، بل تنتهى طموحاته وأعماله كلها عند هذه الحياة الدنيا . . مع أنه لو نظر نظرة العاقل لعرف أن الدنيا لا يمكن أن تكون هى الحياة للإنسان - لماذا ؟ . . لأن العمر فيها مظنون وغير متيقن ، إنه مبنى على الظن وليس على اليقين . فالإنسان يتوقع أن يعيش فى الدنيا حتى يبلغ سن الستين أو السبعين أو أكثر من ذلك . . ولكن هناك من يموت وعمره فى الدنيا ساعة . . ومن يموت وعمره يوم . . ومن يموت وعمره أسابيع أو شهور . . ومن يموت وهو يبلغ أرذل العمر .

الانسان - بطبيعته - يظن أنه سيعيش فى الدنيا أعواما طويلة . . ولكن هذا ليس مبنيا على يقين . فقد يأتيه الموت فى أية لحظة . ولا أحد يستطيع أن يدعى أو يتنبأ بأيامه فى الدنيا ولا بعمره فيها .

لكن الانسان يستطيع يقينا أن يعرف عمره فى الآخرة وهو أنه خالد لا يموت . . منعم لا يذهب عنه النعيم ، أو معذب لا يتركه العذاب . .

إننا إذا أردنا أن نحكم على أشياء حكمها الحقيقى بالنسبة للانسان . . فلابد أن نأخذ هذا الحكم بمقياس الآخرة ، ثم نضع المقاييس لتصبح هذه الاحكام صحيحة وسليمة . . ولكن ـ لغفلتنا ـ فإن مفاهيم الخير والشر بالنسبة لمعظمنا تتركز على الحياة الدنيا ، على أساس انها غاية وليست وسيلة . . فما يحقق لنا متعة ونعيما فى الدنيا اعتبرناه خيرا . . وما يحقق لنا نوعا من الشقاء أو عدم الرضا . . أو الحرمان مما نشتهيه اعتبرناه شرا . . ومادام هذا هو مفهومنا ، ومادمنا نعيش بهذا المفهوم الخاطىء ، فسنشقى وسنبتعد عن الله .

إن الناس تأخذ الخير والشر بمفهوم شخصى حسب مصالحها الشخصية دون أن تنظر إلى ما هو أعمق من ذلك . . ولكن المقاييس الشخصية لا يمكن أن تحدد خيرا أو شرا . . لأنها مقاييس ناقصة وأنانية ، لا تعرف أين الخير وأين الشر .

إننا إذا قسنا الحدث بمقاييسنا الشخصية . . نجد أنه خير لإنسان ، وشر لإنسان آخر . . فإذا فرضنا مثلا أن الوزارة قد أقيلت . . وتم تأليف وزارة جديدة . . هذا الحدث هو شر بالنسبة للذين خرجوا من الوزارة . . وبالنسبة للوزراء الجدد يعتبرونه خيرا ويتلقون التهانى عليه . . مع أنه نفس الحدث . . ولكنه شر لبعض الناس وخير للبعض الآخر .

ولنا أن نتساءل : كيف يكون الحدث نفسه خيرا وشرا فى نفس الوقت ؟ . . كيف يكون الحدث هو جامع للخير والشر معا ؟!

لابد هنا أن المقاييس مختلة ، لذلك فهى لا تعطى المعنى

الحقيقى ، ولو أن المقاييس غير مختلة لما وجدت هذا التضارب والتضاد فى المعنى . ولكن عندما تختل المقاييس يختل معنى الأحداث . تلك هى الحقيقة التى لابد أن نلتفت إليها . . ونحن نعالج قضية الخير والشر .

إن المقاييس الشخصية ـ كما قلت ـ لا تصلح حكما فى هذه القضية . وأنه لابد أن هناك مقاييس أخرى وضعها الله سبحانه وتعالى فى الكون . . هى التى يمكن أن تحكم الأحداث وتعطينا المعنى الحقيقى لها .

هذه المقاييس لا يمكن أن نصل اليها نحن بفهمنا المحدود . . ولا بعلمنا القليل . . فأشياء كثيرة تغيب عنا تجعلنا لا نصلح كحكم على الخير والشر فى الدنيا ، بل نأخذ الأشياء بسطحيتها ودون فهم ، ثم ننطلق ونصدر أحكاما بعيدة عن الحقيقة !

وإذا أردنا أن نقيس الكون بمقاييس مهمة الانسان فيه ، ـ تلك المهمة التى خلقه الله سبحانه وتعالى من أجلها ـ فلابد أن نفهم أن الله تبارك وتعالى قد وضع الميزان الدقيق لحركة الحياة فى الكون . . ذلك الميزان الذى يحكم كل شىء ، وأول الأشياء التى وضعها الحق سبحانه وتعالى هو ميزان الجمال فى الكون ، والجمال هو أن يؤدى الشىء مهمته فى الحياة . . لذلك كانت قوانين الكون تضمن أن يؤدى الإنسان مهمته . . فاذا عبث البشر بهذه القوانين وعطلوها ولم يأخذوا بها فسدت الحياة ، وامتلأت بالشقاء والشرور ، وضاع الجمال فيها ، ومقاييس الجمال تجدها فى الكون وفى كل حركة من حركات الحياة .

فى البداية .. كانت الفطرة

ولنبدأ مع بداية الحياة .. حين يولد الطفل .. أول شيء أنه يولد على الفطرة مسلما .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كل مولود يولد على الفطرة مسلما وأهله ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه) .

إن كل مولود جاء الى هذه الدنيا إنما جاء وهو على الفطرة السليمة .. على دين الله الصحيح ، ثم يحدث الفساد بعد ذلك من الناس ، أى من أهله الذين ينقلونه من دين الفطرة - التى خلقه الله عليها - إلى ما يعتنقونه هم .. هذا دليل على جمال الله فى كونه منذ بداية الحياة لأى مولود ، بأن خلق كل خلقه على الاسلام ، ويدل - فى نفس الوقت - على إفساد الناس لهذا الجمال .

إن أى طفل يشب على البراءة بما منحه الله من جمال الخلق بالفطرة .. إنه لا يعرف الكذب ولا النفاق ولا السرقة .. ولا أيا من شرور الدنيا ، ولكن أبواه هما اللذان يعلمانه كل شر .. هو مخلوق على جمال الفطرة .. صادق القول صادق الاحساس .. برىء طاهر .. فلم نسمع عن طفل ولد كذّابا بالفطرة .. ولم نر طفلا ولد سارقا بالفطرة .. ولا سمعنا عن طفل ولد منافقا بالفطرة .. ولكن كل هذه الشرور والآثام يعلّمها له والده .. أو أقاربه أو أقرانه .. فكأن الخلق جاء على الجمال فى الكون .. والافساد فى الكون إنما جاء من تدخل البشر .

ويكبر الطفل ويذهب إلى المدرسة . . وبدلا من أن يعلمه والداه أن العمل هو أساس النجاح ، وأنه لكى ينجح يجب أن يذاكر . . يتحايلان على أن ينجح دون مذاكرة ، فيحاولان الحصول على اسئلة الامتحان من المدرسين ، إما بواسطة الدروس الخصوصية . . وإما بالرشوة وإما بالنفوذ . . ونكون ـ بتدخلنا هذا ـ قد أفسدنا الجمال فى الكون . . كيف ؟ لأنه إذا نجح التلميذ بلا مذاكرة . . هل سيذاكر بعد ذلك ؟! . . طبعا لا . . لأنه مادام ينجح بلا جهد ، فلماذا يذاكر ويتعب ؟!

إن ما نراه الآن من محاولة بعض المدرسين لبيع الامتحانات ، أو إعطاء الاسئلة للطلبة مقابل دروس خصوصية أو غير ذلك . . هو محاولة لافساد الجمال فى الكون ، فيعتاد كل طالب ألا يذاكر لينجح ، وتكون النتيجة أنه لا يتعلم ، وتنتهى مرحلة تعليمه وهو لا يعلم شيئا ، ويدخل المجتمع كله فى كارثة حقيقية .

الله سبحانه وتعالى يريد منا عمارة الأرض ، ولكى نعمر الأرض فقد خلق الله جل جلاله لنا عقولا ترث الحضارات وتضيف عليها . . هذا العقل هو الذى ميز الانسان على الحيوان . . فالحيوان مازال يعيش عيشته البدائية منذ بداية الخلق ، إننا لم نسمع مثلا أن مجموعة من الحيوانات قد عقدت اجتماعا تتدارس فيه كيف ترقى بحياتها ، وكيف تنشىء حظائر مكيفة الهواء مثلا ، ولم نعرف أن حيوانا تقدم عن أبيه أو جده فى العلم فأصبح يعلم ما لم يكونوا يعلموه . . واستطاع ان يطور حياته ويغيرها . لم يحدث ذلك لأمر بديهى هو أنه لا يملك المؤهل للتطور .

معنى .. التطور ؟

إننى أتعجب من الذين يقولون إن الحيوان قد تطور مع البيئة فأصبح كذا وكذا ، أو ينبت له شعر كثيف فى المناطق الباردة . . أو يتكيف بلون النبات حتى يختفى عن أعدائه . . أو ينشىء جحرا متطورا ! .

إن كل هذه الاشياء يعطيها الله سبحانه وتعالى لمن شاء ليحفظ حياته من الانقراض . . ولكن الحيوان لا يملك العقل ولا الفكر . . ولا القدرة ليطور حياته . . لأن هذا العقل ميزة اختص بها الله سبحانه وتعالى الانسان وحده . . وكشف له من أسرار كونه ما يمكنه من عمارة الأرض . . ومن التقدم فى الحضارة .

إن العقل البشرى اذا لم يكن قادرا على أن يفهم ويعرف حضارة السابقين ويضيف عليها ، فإنه يتخلف ويعجز عن فهم أسرار الله فى كونه .

وإذا كان الجمال فى الحياة هو أن تتقدم البشرية وترقى وتعمر الأرض . . فكأننا ـ ونحن نعلم أبناءنا أن ينجحوا دون جهد بالغش والدروس الخصوصية وغير ذلك ـ نهدم العلم والعمل معا . . ونفسد عمارة الأرض بإفساد من اختصه الله بالقيام بهذا التعمير ! !

وهنا نقطة تثار فى بعض الأحيان . . وهى مسألة تدريب الحيوانات على الإتيان بحركات يحاول بعض الناس أن يوهمونا

أنها تعتمد على عقل الحيوان وفهمه ، ونقول لهؤلاء : ان هذا غير صحيح .. لأن هذه الحركات تعتمد أساسا على الغريزة .. فالحيوان حين يدرب على الحركة .. إما أن يثاب إذا فعلها فيقدم له الطعام .. وإما يعاقب إذا لم يفعلها فيسبب ذلك له ألما ..

إنه يفعل ما يطلب منه أن يفعله بغريزته .. إما بدافع الجوع ، لأنه يعلم انه سيتناول طعامه بعد ذلك ، وإما خوفا من الألم .. إذا لم يفعل . ولذلك فهى حركات تعتمد على الغريزة وليست على العقل .. فلو كانت تعتمد على العقل لاستطاع الحيوان ان ينقلها إلى أولاده .. ولكنه لا يستطيع ، فلم نعرف أن أسدا أو قردا أو حصانا علم أولاده الحركات البلهوانية التى يقدمها فى السيرك .

الله سبحانه وتعالى .. حدد مهمة آدم قبل أن يخلقه .. وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

معنى الخلافة

وبما أن الله قد أعطى الإنسان الخلافة فى الأرض . . فإنه سبحانه سخر له سائر اجناس الدنيا لتخدمه وتعمل من أجله . فأجناس الدنيا أربعة هى . . الجماد والنبات والحيوان والانسان . الجماد ما نقول نحن إنه لاحس فيه ولا حركة ، وهذا أخذ بظاهر الأشياء . . وهو ينتهى عند أول درجات النبات . . وهى النمو . .

إننا نرى الشعب المرجانية فى البحار تأخذ بشكل بدائى خاصية النمو وهى أول مميزات النبات ، والنبات له خاصية النمو والتنفس وغير ذلك . . ولكنه يفقد خاصية الحس والحركة وهى أول الدرجات فى الحيوان . . ولذلك فأننا نرى أن هناك بعض النباتات إذا لمستها تحركت مثل ما يطلقون عليه اسم (الست المستحية) . . أو غير ذلك من النباتات الموجودة فى الغابات الاستوائية . . إذا لمستها تحركت أغصانها .

والحيوان يبدأ بالحركة والحس وينتهى عند العقل . . ولذلك فإن أرقى أنواع الحيوان لها فكر بدائى يمكنها من الإتيان ببعض الحركات كالقردة مثلا . .

أما الانسان فإنه يبدأ بالعقل . . وهو ما يميزه عن باقى مخلوقات الله ، وهو الذى يصنع له التقدم . . فكل جيل يستوعب حضارات الجيل الذى قبله ويضيف عليها ليسلمها إلى الجيل الذى بعده . . وهكذا كلما تقدم الزمن . . كانت

هناك قفزات أسرع . . لأنه بتوالى الاجيال جيلا بعد جيل بعد جيل . . يصبح لدينا ميراث ضخم من الحضارة نبنى عليه تقدمنا .

لقد وضع الله سبحانه وتعالى . . أسس الجمال فى الكون . . وهى أسس لا تستقيم الحياة بغيرها ، من هذه الأسس أن الحياة لا تستقيم إلا إذا أكل الانسان من ناتج عمله . لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده) .

والاسلام يمنع أن يعطى الناس أجرا بلا عمل . . حتى أنه قيل إذا لم يكن هناك عمل يؤدى ، فليكلف الناس بحفر بئر ثم يكلفون بردمه . .

من الناحية العقلية قد يكون هذا غير واضح .. كيف يكلف الانسان بحفر بئر وردمها ؟! نقول إن القصد هنا هو ألا يتعود الناس أن يتقاضوا أجرا بلا عمل ، لأنه إذا تعود الناس على أخذ المال بلا عمل .. فإنه سوف يترتب على ذلك أن نصبح مجتمعا من العاطلين الذين يأخذون أجرا ولا يعملون ، فيضيع الجمال فى الكون ويعم الفساد فيه .

كذلك من الجمال فى الكون .. أن الله سبحانه وتعالى حرم أكل أموال الناس بالباطل .. فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(الآية ١٨٨ سورة البقرة)

إنك إذا أكلت مالى بالباطل .. فقد حرمتنى ثمرة عملى ، وفى هذه الحالة سوف أزهد فى العمل ، فمادمت أعمل وأشقى .. وأنت تأخذ ناتج هذا العمل فلماذا أعمل ؟.. فكأنك بأكل أموال الناس بالباطل قد أضعت الجمال فى الكون .. فى أن يأخذ كل انسان ناتج عمله ، حتى يكون ذلك حافزا للعمل والتقدم فى الحياة .

وهكذا نرى ان الله سبحانه وتعالى .. قد خلق الجمال فى الكون .. وأن الانسان يأتى ليفسد هذا الجمال .. فيضيع

الخير ويأتى الشقاء والشر .

لقد خلق الله سبحانه وتعالى المجتمع متكاملا بالرزق . . فأعطى كلا منا موهبة لا يملكها غيره . . لقد شاءت إرادته سبحانه وتعالى ان يكون هذا متفوقا فى الهندسة . . وهذا متفوقا فى الطب . . وهذا متفوقا فى صناعة من الصناعات . . كل واحد منا مُتفوِقٌ فى شىء . . وَمُتَفَوَّقٌ عليه فى أشياء .

ان ذلك مصداقا لقول الله تبارك وتعالى :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الاسراء)

ولكن لم يقل الله سبحانه وتعالى من هو البعض المفضل ؟ . . ومن هو البعض الآخر المفضل عليه ؟ . . لماذا ؟ . . لأن كلا منا مفضل فى شىء . . ومفضل عليه فى شىء آخر . فهذا مهندس بارع . . ولكنه محتاج إلى من يعطيه مقومات حياته من طعام وشراب وملبس وغير ذلك . . إذن هو مفضل فى فرع من فروع الحياة . . ولكنه مفضل عليه فى باقى أوجه الحياة . .

وهذا طبيب بارع . . مُفضَّلٌ فى علم الطب . . ولكنه محتاج الى المهندس ليبنى له شقة يسكن فيها . . وإلى من يعد له ثيابا يلبسها . . وإلى من يزرع ويعد له طعاما يأكله . .

وهذا صانع ثياب بارع ، ولكنه محتاج إلى طبيب يداويه . . وإلى مهندس يبنى له مسكنه . . وإلى مزارع يزرع له القمح ليأكل .

إذن فكل منا مفضل فى ناحية .. ومفضل عليه فى نواح أخرى .. حتى عامل النظافة الذى ينظف الشوارع أو يحمل القمامة من الشقق والعمارات .. نحن محتاجون إليه فى هذه الناحية .. لأننا لو تركنا القاذورات .. لانتشرت الأمراض والأوبئة ، وملأت القاذورات كل مكان .. انه مفضل علينا فيما يعطينا من النظافة .. وحتى هذا الذى يعمل فى المجارى والبالوعات .. مفضل علينا فى هذه الناحية .. لأنه لو ترك عمله لامتلأت الشوارع بمياه المجارى وفضلاتها .. وتصبح حياتنا مستحيلة .

إذن فإياك أن تحتقر عملا من الأعمال ، أو تقول أنا أفضل من هذا .. لأنه يعمل فى المجارى ، وأنا طبيب أو مهندس ، لأنه فى ناحيته مفضل عليك .. وأنت محتاج إليه احتياجا قهريا .. لأن المجتمع لا يمكن أن يتكامل إلا بنا جميعا .. من أصغر مهنة إلى أكبر مهنة .

ولكى يترابط المجتمع وينمو ويعيش ، ربط الله سبحانه وتعالى كل هذا بالرزق ، حتى يقدم كل إنسان على عمله .. وهو راض ليحصل على رزقه .. ورزق أولاده .. بل يبحث عن هذا العمل ليأتيه الرزق .. وهذه عملية ضرورية انها أساس الجمال فى هذا الكون .. لأنه لو كنا جميعا أطباء أو مهندسين .. فمن الذى يعد لنا رغيف الخبز الذى نأكله فى الصباح ؟ ومن الذى ينظف الطرقات ؟ ومن الذى يعمل فى المجارى وغير ذلك ؟

إن المجتمع الذى لا يقوم على التكامل بين أفراده يفسد .. ولا يمكن ان يعيش ولا يستمر .. لقد شاء الله أن يكون كل

منا مفضلا فى ناحية يستفيد منها المجتمع كله .. حتى تكون الحياة ممكنة .

هذه مقدمة لابد منها لنعرف سر الجمال فى الكون .. وأن الله سبحانه وتعالى .. خلق الكون على الجمال ، كما خلقه على الخير ، ولكن الفساد جاء لأن الانسان أعطى حرية الاختيار فى إفعل ولا تفعل ، فأخذ يفسد فى الكون ويدعى أنه يصلحه .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

(الآيتان ١١ و١٢ سورة البقرة)

فالله جل جلاله قد خلق كونه على الأسس الصحيحة السليمة التى تكفل الحياة الطيبة لكل خلقه ، ولو أن الانسان أخذ الكون بتعاليم الله تبارك وتعالى .. سواء فى التكوين ، أو فى العمل ، أو فى التفضيل ، أو فى الأسباب .. ما كان هناك شر ولا شقاء فى الكون .. لأن كل شىء وضع الله سبحانه وتعالى له قواعد الجمال التى تحفظه وتجعله يؤدى مهمته دون حاجة إلى فكر إنسانى يحاول به أن يغير ويبدل .

والشر فى الكون لم يأت من الخلق .. ولا من القواعد التى وضعت للخلق .. ولكن تدخل الانسان فيها هو الذى يفسدها .. فالكون فى خلقه غاية فى الابداع .. يؤدى مهمته كما أرادها الله سبحانه وتعالى له .. ولكن فى انسجام

وراحة . . بعيدا عن كل ما يشقى ويأتى بالأمراض فى هذا الكون .

إن الانسان بابتعاده عن منهج الله ، أوجد أمراضا وآفات فى المجتمع . . جاءت بالشقاء والشر ، ولذلك أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل بالمنهج . . ليعيدوا إلى الكون انسجامه وجماله . .

وعندما نقرأ فى القرآن الكريم . . قول الحق سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الاسراء)

نعرف ان القرآن قد نزل أولا . . ليعالج أمراضا قد ظهرت واستفحلت . . نتيجة البعد عن منهج الله . . وعندما يتم الشفاء ويبرأ المجتمع من الأمراض التى تشقيه ، تأتى الرحمة وان فى اتباع منهج الله . . تختفى هذه الأمراض ولا تعود مرة أخرى . . ليشقى بها الانسان من جديد .

الحق سبحانه وتعالى أقام كونه وأوجده على قواعد وقوانين تجعل الجمال هو صفة الكون ، ولكن الانسان ـ بما أوتى من اختيار ـ قد تدخل فى هذا الكون ليفسده . . فبالاختيار إختار أشياء على غير مراد الله الشرعى فى كونه . . ومن هنا جاء الشر . . ومن هنا حدث الفساد .

والعجيب ان الانسان ادعى أنه يصلح فى الكون وهو يفسد . . ولكنه بعد أن يعانى الشقاء . . ويتحمل آلام الشر وأوجاعه وتعبه . . سيعود مرة أخرى إلى منهج الله . . وإلى

قواعد الجمال فى الكون . . ولكنه لن يعود اليها بإيمان . . بل سيعود لها قهرا . . لأن الحياة لا يمكن ان تمضى . . إلا بهذه القوانين والقواعد .

اننا ـ للأسف الشديد ـ ننقل عن مجتمعات غير مؤمنة ما يفسد حياتنا ومجتمعاتنا ونترك منهج الله الذى به وحده صلاح أمرنا . . لكن هذه المجتمعات بدأت تعود قهرا . . إلى منهج خالقها . . واكتشف أخيرا . . انه لا يمكن للحياة أن تستقيم . . إلا بمنهج السماء . . سواء أخذته عن إيمان . . أو لم تأخذه ، لأن الحياة لا تزول متاعبها إلا به .

الفصل الثانى



الشر فى الكون

جعل الله سبحانه وتعالى - كما بينا - الجمال فى كل خلقه فى كونه .. وجعل قوانين الأسباب لتحفظ هذا الجمال .. فالذى يأخذ بيد الله الممدودة بالأسباب .. يعطيه الله ، والذى يحاول أن يتحايل بأن يأخذ الشيء من طريق ما حرم الله ، إنما يفسد فى هذا الكون ..

ان الكون مخلوق لينسجم مع منهج الله فى كل شيء .. فى العمل وفى الأسرة .. وفى الأطفال ، وفى الرزق .. وفى كل حركة الحياة ، تأخذ بقوانين الله لا يأتيك إلا الخير ، تبتعد عن قوانين الله .. لا يأتيك إلا الشر .. ليس فقط فى الدنيا ، ولكن فى الدنيا والآخرة .. ولذلك يقال : (لا خير فى خير يؤدى إلى النار ، ولا شر فى شر يؤدى إلى الجنة) .

لكن كيف يمكن أن يؤدى الخير الى النار ؟ ولنضرب لذلك مثلا .. رجل يسرق ليتصدق بما يسرق ، يأخذ من الأغنياء ويعطى الفقراء ، ويطلقون عليه اسم اللص الشريف ! وهو أبعد ما يكون عن الشرف . إنه يظن أنه يعمل خيرا ، ولكنه فى الحقيقة يرتكب شرا كبيرا . لأنه سرق ما حرم الله أن تمتد يده اليه .. ولن ينفعه الخير الذى فعله ولا يتقبل منه ، لأنه يأتى عن طريق حرام .. والله سبحانه وتعالى .. لم يطلب من أحد أن يعينه فى كونه على الرزق .. وهو الرزاق للجميع .. حتى المال الحرام رزق .. ولكنه رزق حرام .

الله سبحانه وتعالى لا يبيح لأحد أن يأتى بمال حرام ، ثم يدعى أنه يفعل الخير . فالانسان لا يشرع بأن يحلل حراما ، أو

يحرم حلالا . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾

(الآية ٥٩ سورة يونس)

وهكذا يعرفنا الله جل جلاله . . ان الحرام والحلال بإذنه ومن تشريعه ، وأن الانسان لا يحل له أن يحرم ما أحل الله ، ولا أن يحل ما حرم الله . والله تبارك وتعالى لا يريد من أحد أن يعينه فى كونه وهو القادر على كل شيء . . القاهر لكل خلقه . . فلا يرتكب أحد عملا حراما ، ثم يدعى أنه خير . . لأنه ـ كما قلنا ـ لا خير فى خير يقود إلى النار .

أو تأتى امرأة فتبيع شرفها وتقول إننى فعلت ذلك لأربى أولادى تربية حسنة !! نقول لها ما تفعلينه حرام ولا يتقبل منك ما أنفقته على أولادك ، لأن الله غنى عن هذا كله . . ولو صبرت قليلا لرزقك الله من حلال ما أعانك على تربية أولادك .

كذلك لا شر فى شر يؤدى الى الجنة . . أى انك لو نصرت مظلوما وأصابك من ذلك أذى ، فهو ليس شرا ولكنه خير . . لأنك ستثاب عليه أحسن الثواب . . ولو أنك استغنيت عن بعض الكماليات وتصدقت بثمنها تكون رابحا ولست خاسرا . . لانها ستضاعف لك عند الله جل جلاله .

فقد أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة مصلية (مشوية) ، فأمر بتوزيعها على الفقراء والمساكين ، فقامت

السيدة عائشة رضى الله عنها بتوزيعها . وأبقت كتفها . لأنها كانت تعلم ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب لحم الكتف ، ولما عاد النبى صلى الله عليه وسلم وسأل عن الشاة . قالت له السيدة عائشة : وزعنا لحمها وأبقينا الكتف ، فقال صلى الله عليه وسلم : بقيت كلها ، إلا الكتف .

هذه هى المقاييس الحقيقية للخير والشر . . إنها المقاييس التى وضعها الله سبحانه وتعالى . . ولكن الانسان أساء بالاختيار الذى منحه الله له فى الكون ، فبدلا من أن يأخذ مقاييس من خَلَقَهُ وأوجده ، حاول أن يضع هو المقاييس لنفسه .

ولكى نفهم هذه الحقيقة ، علينا ان ننظر إلى الكون الأعلى الذى لا اختيار فيه لبشر ، سنجد أنه فى غاية الانتظام . . وفى قمة الدقة . . يعطى لكل خلق الله حياة مريحة بلا شقاء ولا ظلم .

فالشمس والقمر والنجوم والكواكب والهواء وسائر الاشياء التى لا إرادة للانسان فيها على الأرض ، تؤدى مهمتها دون أن يشكو منها أحد . . ودون أن تتعب أحدا . فلا أحد اشتكى ان الشمس تأخرت عن موعد شروقها ، أو انها أشرقت على قوم وحجبت أشعتها عن قوم آخرين ، ولا أحد أتعبه نظام الكواكب فى أنه اختل فاختل معه نظام الكون ، ولا أحد قال انه بحث عن الهواء ليتنفس فلم يجده ، ولا أحد يستطيع أن يدعى ان المطر انقطع عن الأرض فقضى على الحياة فيها وهلك الزرع والحيوان والناس ، ولا أحد يستطيع ان يقول إن الأرض اختلت فى دوراتها وألقت ما فوق سطحها إلى الفضاء .

كل هذا لم يحدث . بل إن هذه العوامل كلها المقهورة لله سبحانه وتعالى تؤدى دورها دون أن نحس أو نشعر بأنها تؤدى مهمتها كاملة بلا اختيار منها ، ولكن الفساد والشر فى الأرض جاء من الاشياء التى فيها اختيار للانسان . . ذلك ان الانسان تدخل باختياره ليفسد لا ليصلح !

فإذا نظرنا إلى بداية الحياة نجد ان الله سبحانه وتعالى أراد ان يلفتنا إلى منهج الحياة فى هذا الكون ومنذ لحظة نزول آدم إلى الأرض أنزل الله تبارك وتعالى معه المنهج ، فطلب منه أن يبلغ ذريته ان هذا المنهج من الله جل جلاله ، من اتبعه لا يضل ولا يشقى . . فقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(الآية ١٢٣ سورة طه)

وهكذا منذ لحظة بداية الانسان على الأرض . . بيَّنَ الله سبحانه وتعالى له ان الشقاء والشر إنما يأتى بالابتعاد عن منهج الله ، وان هذا المنهجُ اذا طبق كما أراد الله . . لما وقع شر فى الكون . . فكأن الله قد بين لنا الطريق مع بداية الحياة . .

وآدم نزل إلى الأرض ومعه المنهج .. وأبلغه لأولاده .. وهؤلاء أبلغوا ذريتهم وهكذا .

وهنا تأتى الارادة البشرية لتضع أول بذور الشر فى الكون بين أولاده فى قصة هابيل وقابيل التى رواها لنا الحق سبحانه وتعالى . إنها أول جريمة قتل على الأرض بين ولدى آدم .. قابيل وهابيل .. ولو أن قابيل اتبع قول الحق جل جلاله :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الاسراء)

ما وقع هذا الشر ، ولكن الذى حدث ان أحدهما وهو قابيل .. خالف المنهج وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق .

والقصة إن الله سبحانه وتعالى قضى أن تلد حواء فى كل حمل ذكرا وأنثى ، حتى يتم التكاثر فى الأرض وعمارتها .. وكان ذكر البطن الأول يتزوج أنثى البطن الثانى .. وذكر البطن الثانى يتزوج انثى البطن الأول .. ولكن قابيل لم يعجبه هذا ، لأن أخته ـ التى ولدت معه ـ كانت أجمل من تلك التى جاءت مع هابيل .. فأراد أن يخالف القاعدة ، وأن يتزوج أخته التى جاءت معه فى نفس البطن .. ولجآ إلى ابيهما آدم الذى طلب منهما أن يحتكما إلى الله سبحانه وتعالى .

ويروى لنا القرآن الكريم القصة فيقول :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ

﴿ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾

(الآية ٢٧ سورة المائدة)

وهذه القصة تلفتنا إلى ان الله سبحانه وتعالى أنزل المنهج على آدم بمجرد نزوله على الأرض ، وأنه جل جلاله لم يترك الانسان على غير هدى منذ اللحظة الأولى من الحياة . . بل هداه وبين له ما يقيم الحياة الطيبة ، وما يعبد به الله ويتقرب به منه . . ذلك ان بعض الناس يدعى ان آدم نزل على الأرض بلا منهج ، وأنه ترك على غير هدى هو وذريته حتى أرسل الله أدريس نبيا ونوحا بعده ، وهم يستندون فى ذلك إلى ان قصص الأنبياء تبدأ بنوح عليه السلام . . أى انه لم يكن هناك نبى قبله . نقول إن هذا غير صحيح ويتنافى مع عدل الله تبارك وتعالى . . والله جل جلاله يقول :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الاسراء)

إذن فلابد من إبلاغ منهج الله للناس أولا . . ليكون عدلا أن يكافأ من أطاع ويعذب من عصى . . ولو أنه لم يكن هناك منهج . . فكيف احتكم قابيل وهابيل إلى الله سبحانه وتعالى ؟ لقد كانا على علم يقينى ان الله سبحانه وتعالى موجود وواجب الوجود ، ولولا ان آدم أخبرهما بالمنهج ما علما ذلك .

لا يمكن أن نصل إلى متطلبات الله .. كيف نعبده وما يرضيه وما يغضبه بالعقل وحده .. ذلك ان العقل غاية ما يصل إليه هو أن هناك إلها لهذا الكون .. فيتأمل آيات الكون وخلق السموات والأرض والشمس والقمر وغير ذلك . انه يوصلنا إلى ان هناك خالقا عظيما .. هو الذى أوجد هذه الاشياء .. لأنه لا قدرة لبشر على أن يوجدها ، فلا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الشمس أو القمر أو النجوم أو الأرض . ولا أحد مهما بلغت قوته وعلمه يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه .. فتلك أشياء فوق قدرة البشر جميعا ولو اجتمعوا لها .. إذن فلابد من خالق لهذا الكون هو الذى أوجده ، وهو الذى خلقنا .

من هو الخالق ؟ .. وماذا يريد منا ؟ .. تلك أمور فوق طاقة العقل لا يستطيع أن يصل اليها . ذلك ان قدرة العقل تقف عند الدليل على أن لهذا الكون خالقا وموجدا .. ولكن ما أسمه ؟ .. وماذا يريد منا ؟ .. وكيف نتقرب اليه ؟ .. وماذا يرضيه وماذا يغضبه ؟ .. تلك أمور فوق قدرة العقل البشرى .

ولكى نقرب ذلك إلى الاذهان .. نقول : إذا كنا نجلس فى حجرة مغلقة ، ثم سمعنا طرقا على الباب . غاية ما نستطيع أن نصل اليه هو أن بالباب طارقا .. ولكن من هو ؟ .. هل

هو رجل أو امرأة أو طفل ؟ . . ماذا يريد ؟ . . أيريد بنا خيرا أم شرا ، هل جاءنا بشيء طيب أم لم يأت بشيء على الاطلاق ، أم جاءنا ليبلغنا أشياء لا نعرفها . . هذا لا يمكن أن نصل اليه إلا إذا قمنا وفتحنا الباب . . .

ولكن الله سبحانه وتعالى كريم معطاء ، ولذلك لم يتركنا فى حيرتنا ، لقد أرسل الينا الرسل ليفتحوا لنا أبواب السماء ويبلغونا أن خالق هذا الكون هو الله سبحانه وتعالى . . وأنه يريد منا أن نعبده وأنه ـ حتى لا نضل ـ حدد لنا هذه العبادة وطريقة أدائها ، وأعلمنا ان هناك حياة أخرى فيها خلود . . وأن الله أعد للطائعين نعيما هائلا . . وأعد للعاصين عذابا أليما . .

ولذلك اقتضت رحمة الله سبحانه وتعالى ان تبدأ الحياة البشرية على الأرض بالرسل . . لأن هؤلاء هم الذين سيبلغوننا عن الله ما يريدنا جل جلاله ان نعرفه عنه فى أنه هو الله الخالق الذى أوجد كل شيء ، وأنه وضع لنا منهجا للحياة نتبعه .

إن احتكام قابيل وهابيل فى قضيتهما إلى الله ، انما هو دليل على ابنهما عرفا وجود الله الخالق لهذا الكون ، وكونهما قررا أن يحتكما إلى الله تبارك وتعالى بقربان يقدمانه ، دليل على انهما عرفا المنهج . وكيف يتم التقرب إلى الله ، وعرفا ان الله سبحانه وتعالى يتقرب إليه بأفعال معينة ، وتغضبه أفعال محددة . . وذلك حتى نعرف ان الله جل جلاله لم يترك الانسان لحظة واحدة بلا منهج ، وان المنهج نزل مع آدم إلى الأرض .

وكما نعلم فقد تقبل الله سبحانه وتعالى قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل . . وقيل ان ذلك بسبب ان هابيل قدم أحسن ما عنده كقربان . . وقابيل قدم أسوأ ما عنده ، والله جل جلاله طيب لا يقبل إلا طيبا . وقيل لأن هابيل رضى بحكم الله وقضائه فى أن يتزوج أنثى البطن الأول التى جاءت مع قابيل . . وقابيل تمرد على حكم شرعى لله ، وأراد أن يتزوج أخته التى جاءت معه فى نفس البطن .

ومهما قيل من أسباب ، فإن الذى يهمنا هو ما ذكره القرآن الكريم . . ان الله سبحانه وتعالى تقبل قربان هابيل . . ولم يتقبل قربان قابيل . . وكان يجب على قابيل فى هذه الحالة ان يحترم عدم قبول الله لقربانه ، وان يستغفر الله ، وينظر إلى ما فى نفسه من اعوجاج . . فيحاول أن يصلحه ، ولكنه لم يفعل ذلك ، بل امتلأ غضبا . . وقال لأخيه هابيل

سأقتلك .. ورد هابيل بأنه لا ذنب له فيما حدث .. من أن الله لم يتقبل قربان قابيل .. لأن الله يتقبل من المتقين .

وهنا نقف مرة أخرى لنتساءل : من الذى أخبر هابيل ان الله سبحانه وتعالى يتقبل من المتقين ؟ لابد أنه كان هناك منهج علم منه هابيل انه الله لا يتقبل من العاصين أو الكافرين .. وإنما يتقبل من المتقين .

ثم تمضى القصة ليذكر لنا الحق تبارك وتعالى ان قابيل قتل أخاه .. فيقول جل جلاله :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(الآية ٣٠ سورة المائدة)

وسواء تم القتل كما يُرْوَى بقطعة حديد أو بحجر ، فإن هذا لا يهمنا إنما الذى يهمنا هو أن هذه أول جريمة قتل حدثت فى البشرية كلها ، وأول مخالفة - نعلمها - لمنهج الله على الأرض .. وأول تمرد على مراد الله الشرعى فى كونه ..

المعصية لم تتوقف

كان هذا عرضا سريعا لبداية الشر فى الكون .. انه جل جلاله يريد أن يلفتنا .. إلى ان الشر يأتى من مخالفة منهج الله .. ولو أن قابيل أطاع الله والتزم بمنهجه .. لامتنع عن قتل أخيه . وإذا كانت هذه هى البداية .. بداية المعصية وما تحمل من شرور ، فإنها لم تتوقف كما يروى لنا القرآن الكريم عن قصص الأنبياء والرسل .. نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى وغيرهم .. ولقد كانت السماء تتدخل لعقاب الكافرين فتهلكهم .. وفى ذلك يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ
وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

ولكن كيف ابتعد الناس عن المنهج ؟ .. الله سبحانه وتعالى يروى لنا ذلك .. عندما أشهدنا على نفسه ونحن فى عالم الذر ..

يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

(الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ سورة الأعراف)

ان البعد عن منهج الله يأتى بطريقتين .. إما بالغفلة عن المنهج بأن ينساه الناس أو يحرفوا فيه ، وإما أن يأتوا بكلام ليس من عند الله ويقولون هو من عند الله ، إنهم أولا ينسون ما يتعارض مع أهوائهم من منهج الله ، وما لا ينسونه يحرفونه ، وما لم يحرفوه يأتون بكلام بشرى ثم ينسبونه ظلما وعدوانا إلى الله سبحانه وتعالى . وفى ذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

(الآية ٧٩ سورة البقرة)

هذه هى الغفلة .. التى تدخل إلى القلوب فتعميها عن

منهج الله .

ثم يأتى الطريق الثانى وهو تقليد الآباء . يبدأ الآباء بالابتعاد عن منهج الله ، ويقلدهم أبناؤهم ويزيدون على ذلك انحرافا لتحقيق مكاسب دنيوية ، ثم يأتى الجيل الذى بعدهم فيقلد الآباء وهكذا . والله سبحانه وتعالى يلفتنا إلى ذلك فيقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

(الآية ١٧٠ سورة البقرة)

إذن الغفلة عن المنهج وتقليد الآباء . . هما أساس المعصية والكفر ، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى . . أن يلفتنا إلى ان هذين العذرين غير مقبولين فى الآخرة . . فحذرنا منهما ونحن فى عالم الذر . . حتى لا يأتى أحدنا مجادلا يوم القيامة مستخدما هاتين الحجتين .

إن السماء كانت تتدخل لعقاب الكافرين . . إلى ان جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . فتوقف عقاب السماء للكافرين فى الدنيا ، وذلك لسببين :

السبب الأول هو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرْسِلَ رحمة للعالمين . . المؤمن منهم والكافر ، وهذه الرحمة المهداة لكل من له اختيار فى الدنيا . . فتحت باب التوبة للجميع حتى لحظة الاحتضار .

إن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة من عباده جميعا ، مادامت حياتهم مستمرة على الأرض ، وحتى تطلع الشمس من مغربها إيذانا بقيام الساعة . . أو حتى تأتى ساعة الاحتضار . . وهذه رحمة مهداة إلى كل البشر على يد سيد البشر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . .

أما السبب الثانى فهو ان الله تبارك وتعالى . . ائتمن أمة محمد صلى الله عليه وسلم على القيام بتبليغ الرسالة وتأديب الكافرين . . وذلك مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وإذا كنا سنتحدث عن الشر والشقاء فى الكون . . فلابد أن نتحدث عن العالم المعاصر . . لأن الشر فيه والشقاء فاقا كل العصور . . فما هو سر هذا الشقاء ؟

ان أسباب الشقاء تنحصر فى ان الناس قد تركوا منهج الله وأخذوا يشرعون لأنفسهم بما يسمونه القوانين الوضعية . . وهى تلك التشريعات التى تحكم الآن معظم دول العالم والتى استعاضوا بها عن المنهج الذى وضعه الله سبحانه لاصلاح الكون . . وهذا هو سر الشقاء والتعاسة التى تجتاح العالم كله رغم كل التقدم المادى والعلمى المذهل .

ولابد أن نعى ان العقول البشرية مهما بلغت من الذكاء قاصرة ومحدودة ، ومهما بلغت من العلم ، تعرف أشياء وتغيب عنها أشياء . . فهى لا تستطيع أن تلم بالمشكلة كلها ، ولذلك نجد كل قانون وضعى لا يمر عليه سنوات إلا ويحتاج إلى تعديل ، لأنه غابت عن عقول واضعيه أشياء ظهرت بعد ذلك تقتضى التعديل ، وتظل القوانين البشرية تمضى من تعديل إلى تعديل ، وتظل مليئة بالثغرات التى تظهر الواحدة بعد الأخرى ليظهر الله للناس بالبرهان والدليل ان عقولهم قاصرة ومحدودة . . وغير مؤهلة لأن تشرع لحياة الانسان . .

ان أحدا لا يفيق من فوضى القوانين فى العالم ، ومن الثغرات التى تملؤها ليسأل نفسه لماذا لا نطبق شرع الله الذى هو عليم بكل شىء ؟! والذى خلق الانسان ويعلم ما يصلحه . فصانع الشىء هو أصلح الناس لوضع قوانين صيانته . . ونحن فى حياتنا البشرية . . إذا أردنا أن نصلح آلة فإننا إما نلجأ إلى الصانع ، وإما إلى ما يسمونه الكتالوج الذى

يضع الصانع فيه قوانين الصيانة ، أو إلى من دربهم الصانع وأعطاهم تعلياته عن كيفية الاصلاح . .

إننا نأبى . . أن نتبع مع منهج الله نفس المبدأ الذى نتبعه فى حياتنا الدنيوية . . فنعيد الصنعة الى صاحبها . . نأخذ منه منهج الصيانة الذى وضعه وأبلغه لنا ، وهذا هو السبب الأول فى الشر والشقاء فى الدنيا .

ان بعض الدول ـ وقد شقيت بما شرعته لنفسها ـ أخذت تعيد النظر فى هذه التشريعات . هذه الدول عدلت فى قوانين الله وألغت عقوبة الاعدام . ثم بدأت تصرخ لزيادة جرائم القتل فى مجتمعاتها . . ولم تجد مفرا من العودة الى منهج الله الذى يقضى بإعدام القاتل .

وبالنسبة للطلاق . . الله تبارك وتعالى أباح الطلاق . . فقال جل جلاله :

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ولكن الكنيسة الكاثوليكية . . جاءت فألغت الطلاق . . وقالت الزواج أبدى بلا طلاق . . هذا قانون دنيوى . . فهل استقام لهم الأمر؟ أبدا . . لقد نشأت متاعب ومصاعب وشقاء عائلى وغير ذلك ، حتى اضطرت هذه الكنيسة إلى ان تبيح الطلاق . . ولم تكن هذه العودة عن ايمان بالاسلام ، ولكنها أباحته عن اضطرار ، لأن الحياة لا يمكن ان تستقيم بدونه ، فهناك مشاكل تنشأ بين الزوجين يكون الطلاق فيها

أسلم وأوفق من الاستمرار فى الحياة الزوجية . ويوم أباحت الكنيسة الكاثوليكية الطلاق ، رفعت فى روما وحدها ٢٠ ألف قضية طلاق فى يوم واحد .

وبالنسبة للرضاع يقول الحق جل جلاله فى كتابه الكريم :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾

(من الآية ٢٣٣ سورة البقرة)

ثم ظهر فى العالم الغربى .. من يدعى ان الرضاعة الخارجية أحسن وأفيد للطفل .. وظهرت شركات ألبان الاطفال .. لتعلن زيفا ان ما تنتجه قد وضعت فيه من الفيتامينات والمواد المقوية للطفل ما لا يوجد فى لبن الأم !! ثم ظهر بعد ذلك ان الطفل الذى لا يرضع من لبن أمه عامين كاملين ينشأ مصابا بأمراض نفسية وعصبية تدمره ، وينشأ فاقد الحنان والانتماء إلى الاسرة ، عاقا لوالديه ، كما ظهرت أمراض نفسية كثيرة ضيعت أجيالا بأكملها .. وألقت بها إلى المخدرات وغيرها .. وعمت الشكوى من الأبناء .. ومن عقوقهم بالأمهات والآباء .

لكن فجأة إذا بالذين طالبوا بالأمس بعدم الرضاعة الطبيعية يطالبون اليوم بالعودة اليها ، وإذا بالمؤتمرات تعقد عن فائدة الرضاعة الطبيعية وضرورتها بالنسبة لحماية الطفل لينشأ سليما نفسيا وصحيا ..

والعجيب اننا نحن فى العالم الاسلامى تلقفنا هذا التغيير

بالعودة إلى الرضاعة الطبيعية لمدة عامين كاملين دون أن نذكر أو نتذكر . . أن هذا ما أمرنا به الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم ، وانه أعطانا المنهج السليم لتربية أولادنا . . ولكننا بدلا من أن نطبقها ، قلدنا دول الغرب فى الاتجاه الى الرضاعة من غير لبن الأم . . وضاعت أجيال منا ، ثم أخذنا نشكو من الأجيال الضائعة !! ولم نفطن إلى أن مخالفة منهج الله هى التى أضاعت هذه الأجيال .

ونستطيع أن نمضى . . ونضرب عشرات الأمثلة . . فى الشقاء والشر الذى أصاب حياة البشر . . من مخالفة منهج الله . .

لقد قالوا ان قطع يد السارق وحشية ، ونسوا ان العقوبة فى الاسلام مقصود بها منع الجريمة وردع المجرم ، وأنه إذا عرف أى لص ان يده ستقطع إذا سرق ما أقدم على السرقة ، وكانت النتيجة ـ لعدم تطبيق هذا النص ـ ان السرقات وعصابات السرقة ملأت العالم ، وأصبحت تروع الآمنين وتستخدم من العنف ما يشوه مئات البشر يوميا ، بل ويودى بحياتهم .

إننا لو طبقنا منهج الله ، وقطعنا يد السارق لقلت السرقة فى العالم حتى كادت تنعدم ، ولكننا بتشريعنا البشرى قد زدنا من شقاء البشر ، وزدنا من الشر فى العالم دون أن نحقق شيئا وسيظل هذا الشقاء مستمرا ، مادامت هناك مخالفة للمنهج . . والله سبحانه وتعالى بعلمه غير المحدود . . لا يغيب عنه شىء وهو خالق النفس البشرية . . وخير من يضع لها القوانين التى تصلحها . . والتى تجعل حياتها تستقيم . .

والعالم كله يلف ويدور ، ويملؤه الشر والشقاء ، ثم لا يجد طريقا لحل مشاكله إلا أن يعود إلى شرع الله ، سواء عن إيمان أو عن ضرورة .

وفى نهاية هذا الفصل لابد أن نتعرض إلى نقطتين هامتين :

النقطة الاولى هى ما يتحدث عنه الناس من عدم التوزيع العادل لخيرات الأرض . فبعض الشعوب لديها ما يكفيها ويزيد ، وبعض الشعوب لا تجد ما يكفيها .

أما النقطة الثانية فهى ان الناس ترى الخير فى المال وحده . . فمن رزقه الله مالا اعتقد ان ذلك رضا من الله ، ومن لم يرزقه الله مالا . . اعتبر أن هذا غضب من الله وعدم قبول . .

وهذه كلها مفاهيم خاطئة . . فالله أودع فى كونه ما يكفى خلقه جميعا إلى يوم القيامة ، والله يبتلى الناس بالمال ، وقد يكون المال نقمة ، وقد يكون عدم رضا من الله ، وقد يكون إبقاء للكفر والعياذ بالله ، حتى يعتقد الانسان أنه استغنى ، وحتى لا يرفع يده إلى السماء ويقول يارب . . وحتى يخرج من الدنيا . . وليست له حسنة واحدة تشفع له فى الآخرة .

الفصل الثالث



المظنــون والمتيقن

الناس كل الناس تبحث عن الخير .. ولكن قليلا منهم ، هو الذى يعرف أين هو الخير الحقيقى .. إن الناس غالبا ما تبحث عن خير الدنيا وتنسى الآخرة .. وهذه نظرة قصيرة جدا وقاصرة أيضا ، لأن الذى يفعل ذلك إنما يشترى شيئا مظنونا فى مقابل شىء متيقن . وهذه خسارة فادحة لاشك فيها .

إننا نجد الأب مثلا يبذل قصارى جهده فى إعداد ابنه للحياة الدنيا ، وينفق فى سبيل ذلك كل ماله ، فيختار لأبنه أحسن المدارس رغم أن مصروفاتها تكون باهظة ، ويتعب لكى يدخله أحسن كليات الجامعة رغم المشقة التى يتحملها . فإذا سألته لماذا يفعل ذلك ؟ .. يقول لك : لأبنى مستقبله ، لأعد له مستقبلا جيدا . وتقول له أنت تبذل كل جهدك فى شىء مظنون ، لأن كل ما تفعله مبنى على الظن .. ظن أن ابنك سيعيش ويجتهد ويصبح من المرموقين فى الدنيا .

ولكن من أدراك أن هذا سيحدث .. من أدراك أن ابنك يستطيع أن يستوعب كل هذه الدروس .. واذا استوعبها فمن أدراك أن تأتى امرأة تفتنه أو تتزوجه فتكون عليه وبالا .. أو يستهويه الشيطان بداء من الداءات التى تهلك المال وتحطم الصحة وتضيع المستقبل .. كالخمر أو المخدرات أو الميسر أو أى شىء آخر فيفقد مستقبله تماما .. وينهدم كل ما بنيته ، أو يكون أجله قصيرا ، فيأتى الموت لينهى كل هذه الآمال . أنك تعده للحياة الدنيا ، ولكن هل أعددته للآخرة ؟

هل انفقت نصف أو ربع ما أنفقته لإعداده لحياة الدنيا لإعداده فى الحياة الآخرة ؟ .. هل علمته كيف يصلى أو كيف يقرأ القرآن ؟.. هل علمته الصدق والامانة والاحسان إلى الفقراء ومساعدة المحتاج وصلة الرحم ؟ .. أم أنك تركت كل هذا ولم تلتفت إليه .

ما أمرته يوما بالصلاة وأنت ترى أنه لا يصلى .. ما حدثته يوما عن رضا الله وما الذى يفعله لينال رضاه .. ما كافأته على أمانة حملها .. ولا على صدق قاله .. ولا على ظلم دفعه . انك لم تفعل كل هذا ، مع أنه كان يجب ان تعطى منهج الله الاهتمام الأول .

ان المستقبل الدنيوى الذى تشق على نفسك كى تعد ابنك له ليس فيه شيء من التيقن ، إنه قد يتحقق وقد لا يتحقق .. ولكنك انت وابنك وكل خلق الله يقينا سيلقون الله يوم القيامة ، ويقينا سيحاسبهم الله سبحانه وتعالى ، ويقينا سينعمون فى الجنة ، أو يعذبون فى النار . إنك بسلوكك هذا تكون قد أخذت شيئا ظنيا وضعت فيه كل اهتماماتك ، وتركت ما سيحدث يقينا من لقاء الله سبحانه وتعالى فلم تعره اهتماما ولم تعطه التفاتا ، مع أنه كان يجب ـ لو فكرت بعقلك وفكرك السليم ـ أن تعد نفسك وابنك وأهلك . لما هو متيقن ، إن لم يكن اعدادا اكثر مما هو مظنون ، فعلى الأقل إعدادا متساويا .

إن كثيرا من الناس لا يصلح بفكره وعقله أن يحدد أين الخير؟ وتلك حقيقة تلفتنا إلى أن المقاييس الدنيوية كلها مقاييس لا تصلح للحكم على الخير والشر . . الله سبحانه وتعالى يحدد لنا ذلك في قوله عز من قائل :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

أى أن الآخرة هى الحياة الحقيقية التى يجب أن يسعى اليها الانسان ، لأنك يقينا ستلاقيها ، ولأنك ستعيش فيها أبدا . فعمر الانسان فى الدنيا قد يكون ساعات . . وقد يكون سنوات طويلة . . ولكن حياته فى الآخرة دائمة . . والنعمة فى الدنيا قد تزول عنك . . وقد تزول أنت عنها بالموت . . ولكن النعيم فى الآخرة لا يزول عنك أبدا .

ولكن هل نحن نأخذ الدنيا بهذا المقياس ؟ قليل منا من يفعل ذلك . . أما الأكثرية فإنها تأخذ الخير بمقاييس الدنيا وحدها . . ويتمثل الخير عندها فى المال والنفوذ الدنيوى . . أما غير ذلك فلا يلتفت إليه . .

فمن أعطاه الله مالا ووسع عليه فى رزقه . . يعتبر أن هذا رضا وكرم من الله سبحانه وتعالى ، ومن لم يعطه المال ولم يعطه سعة فى الرزق ، اعتقد أن هذا غضب من الله وإهانه . . وفى

ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾

(الاية من ١٥ - ٢٠ سورة الفجر)

هذه الآيات الكريمة لابد أن نتوقف عندها طويلا ، لأن الله سبحانه وتعالى يصحح للإنسان مفهوم الخير والشر . . ذلك المفهوم الذى يضيع من كثير منا . . الله تبارك وتعالى يقول : « فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه » .

معنى ذلك أن الخير وسعة الرزق وكل جاه الدنيا هو ابتلاء من الله سبحانه وتعالى لعباده ، والابتلاء هو الأمتحان . . والابتلاء فى ذاته ليس مذموما ، ولكن نتيجته هى التى تجعله مذموما أو محمودا .

الله جل جلاله يمتحن عباده فى الدنيا بالخير والشر ، أى بما يعتقدون انه خير لهم . . وبما يعتقدون أنه شر لهم . . مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾

(من الاية ٣٥ سورة الانبياء)

ان الخير هو امتحان للناس كالشر تماما . . لأن الحياة الدنيا كلها ابتلاءات للبشر وامتحانات . . وسليمان عليه السلام حينما احضر له العبد الصالح عرش بلقيس فى طرفة عين ، عرف أن الله يبتليه . أين الابتلاء أو الامتحان هنا ؟ لقد ادرك سليمان عليه السلام أن هناك من هو مفضل عليه فى العلم . . وهو العبد الصالح الذى جاء له بعرش بلقيس فى طرفة عين .

الابتلاء هنا هو أن سليمان عليه السلام عرف أن هناك من عباد الله من هو مفضل عليه فى العلم . وكان فى هذه الحالة إما ان يشكر الله سبحانه وتعالى لأنه لفته على ألا يغتر بما أعطاه الله من ملك ، ويعرف ان الله سبحانه وتعالى يعطى ما يشاء لمن يشاء فلا يركبه الغرور الذى هو بداية الكفر والعياذ بالله ، وإما أن يثور على ما حدث ويقول ياربى كيف تعطينى كل هذا الملك ثم تأتى لعبد من عبادك فتميزه عنى ؟ وحينئذ يكون قدر رد الأمر على الأمر ودخل فى الكفر .

سليمان عليه السلام تنبه إلى هذا الامتحان . . لذلك فقد قال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

معنى ذلك أن شكر الله سبحانه وتعالى ، لا يزيد فى ملكه شيء . . بل إن شكرك لله تبارك وتعالى . . وحمدك وثناءك عليه لا يزيد من قدره جل جلاله ، لأن الله هو الكمال المطلق ، إنما الشكر يعود على صاحبه بالثواب الذى يعطيه الله إياه وحسن الجزاء . . وكذلك الكفر لا يضر الله شيئا ، لأن

الله له مطلق الكمال والجلال .. فلو كفر كل خلق الله ما نقصوا من ملكه شيئا . فالله غنى عن العالمين .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

ولكن الإنسان إذا اكرمه الله سبحانه وتعالى وأعطاه النعمة فإنه يقول : « ربى أكرمن » .. وإذا قَدَرَ عليه رزقه .. أى أصبح الرزق قليلا يقول : « ربى أهانن » .

هذه هى مقاييس الخير والشر عند الإنسان ، سعة الرزق وكثرة النعم يعتبرها خيرا وعطاء ورضا من الله سبحانه وتعالى ، وضيق الرزق يعتبره غضبا من الله وعدم رضا منه ..

هنا يصحح الله تبارك وتعالى هذا المفهوم الخاطىء عند الناس فيقول : « كلا » .. أى إنكم تفهمون خطأ .. فلا كثرة الرزق والخير معناها الرضا ، ولا قلة الرزق والخير معناها الغضب .. بل كلاهما إمتحان للانسان ، ليكون شاهدا على نفسه يوم القيامة .. هل يتقبل قضاء الله بالرضا والشكر ؟ .. أم يتقبله بالكفر والجحود ؟

ثم يمضى الحق تبارك وتعالى مبينا أسباب زوال النعمة عن الانسان .. تلك الأسباب التى تضيع النعمة وتذهبها .. وأول الأسباب كما يرويها لنا القرآن الكريم : « كلا بل لا تكرمون اليتيم » .. لقد وضع الحق سبحانه وتعالى كفالة اليتيم كأول أسباب بقاء النعمة .. وإهانة اليتيم كأول أسباب زوال النعمة .. لماذا ؟ .. ليحدث التكافل فى المجتمع ،

فلا يفترس القوى الضعيف . . ذلك أن اليتيم ـ وهو من فقد أباه وهو طفل ـ يكون منكسرا مكسور الجناح ضعيفا ، يسهل على أى إنسان أن يأخذ ماله ويهينه ، ويفعل به ما يشاء لأنه لا حول له ولا قوة .

والله سبحانه وتعالى يريد من كل من يعيش فى مجتمع إسلامى أن يكون مطمئنا على رعاية أولاده . . سواء كان موجودا . . أو انتقل عن الحياة الدنيا . . لذلك جعل لرعاية اليتيم أعلى المنازل عند الله سبحانه وتعالى ، حتى أنك إذا مسحت على رأسه بحنان . . يكون لك حسنات بعدد شعر رأسه . . أى بكل شعرة حسنة . .

إن الله سبحانه وتعالى يلفتنا إلى عظم أجر رعاية اليتيم والحنو عليه . . وليس جزاء إهانة اليتيم فى الآخرة وحدها ، بل فى الدنيا ايضا . . لأن الله تبارك وتعالى يزيل عنك النعمة إذا أهنت اليتيم وقسوت عليه . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾

(الآية ١ ، ٢ سورة الماعون)

فكأن القسوة فى معاملة اليتيم لا يمكن أن يقدم عليها مؤمن ، بل يقدم عليها الذين يكذبون بالدين .



ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى سبب آخر من أسباب زوال النعمة فيقول :

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾

(الآية ١٨ سورة الفجر)

أى لا يحض بعضكم بعضا على أن تطعموا ذلك الفقير الذى لا يجد ما يكفيه . . وبعض الناس يعتقد أن المسكين هو الذى لا يملك شيئا على الاطلاق . . ولكن المسكين هو الذى لا يملك ما يكفيه . . دليل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

أى أن المسكين هو الذى لا يملك ما يكفى لإقامة حياته . . لأن هؤلاء الرجال كانوا مساكين . . ومع ذلك كانوا يملكون سفينة .

ومن أسباب زوال النعمة أن الناس تتكاسل ، بل وأحيانا تحض وتدعوا إلى عدم تقديم الطعام للمساكين ، والطعام هو أصدق السؤال ، لأن السائل اذا طلب منك مالا فقد يكون كانزا للمال ، واذا طلب منك ثوبا ، فقد يكون غير محتاج اليه ، ولكنه يطلبه ليبيعه . . ولكن الذى يطلب منك رغيفا ليأكله لابد أنه جائع لا يجد طعاما ، ولذلك فطلب الطعام هو

أصدق السؤال . فالذين يمنعون إطعام المساكين ويقفون فى سبيل ذلك يرتكبون إثما كبيرا تزول به النعمة عنهم . .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾

(الآيتان ١٩ ، ٢٠ سورة الفجر)

وهذه أيضا من مذهبات النعمة . . أن تأكل بالباطل الميراث الذى يستحقه غيرك ، تأكل حقهم اذا كانوا صغارا . . أو تتحايل لتأخذ جزءا من ميراثهم إن كانوا كبارا ، خصوصا أن صاحب المال قد مات ، ويمكنك أن تتلاعب دون أن تخشى أن يكشفك أحد من الناس . . وفى هذه الحالة تكون قد حصلت على مال حرام ، يعاقبك الله عليه فى الدنيا . . بأن يزيل النعمة عنك . . هذا غير حساب الآخرة .

المال .. وظيفة فى الحياة

إن حب المال يدفع صاحبه إلى كنزه مما يفقده وظيفته فى الحياة . لأن للمال وظيفة فى حركة الحياة ، فإذا حبسته عن وظيفته أفسدت هذه الحركة بمنعك واغلاقك لأبواب الرزق فى أوجه الناس . فالانسان فى كل مال ينفقه يفتح أبواب الرزق فى المجتمع .. سواء أراد أو لم يرد . . سواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد . فالذى يريد أن ينبى عمارة مثلا . . ليس فى باله نفع المجتمع ، ولكنه يريد أن يصبح صاحب عمارة . . يريد أن يصبح مالكا . . وله ضمان فى الدنيا يقيه شر الفقر .

ولكن ماذا يفعل فى الحقيقة ؟

إنه يفتح أبواب الرزق أمام المهندس الذى سيضع له الرسم ، وأمام أصحاب الأرض وأمام الذين يحفرون الأساس ، وأمام الذين يضعون الخرسانة والحديد ، وأمام البنائين الذين يقومون بالبناء . . والحدادين والنجارين وعمال الأدوات الصحية وعمال الأرضيات . . وأمام المصانع التى تنتج الاسمنت والحديد والزجاج والالمنيوم والطوب غير ذلك . .

إنك بهذا العمل قد فتحت أبواب الرزق لألوف من العمال ومئات من الفنيين وعشرات من المصانع . . فتدور حركة الحياة وينتفع المجتمع ـ كل المجتمع ـ بأنك قد بنيت عمارة . . بينما هذا لم يكن فى بالك . . ولكن المجتمع استفاد . فأنت إذا أنفقت أوجدت حركة رخاء وانتعاش . . ولو لم يكن ذلك فى

بالك . . ولكن إذا اكتنزت المال أوجدت حركة انكماش وفقر في المجتمع .

انك اذا حبست المال عن وظيفته . . ترتكب إثما كبيرا فى حق المجتمع وحق الناس ، والله سبحانه وتعالى لا يريد للمجتمع الاسلامى ان يكون مجتمعا فقيرا منكمشا ضيق الرزق . أما اذا أحببت المال ، فالحبيب يريد دائما ان يكون مع من يحب !! ولذلك فإنك ستكنزه ، وتمنعه عن أداء وظيفته ، ثم ماذا يحدث يوم القيامة ؟ . .

يقول الله سبحانه وتعالى فى شأن هؤلاء الكانزين :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

(من الآية ٣٤ والآية ٣٥ سورة التوبة)

وحب المال يجعلك تبحث عنه بأية وسيلة . . لا تفرق بين الحلال والحرام ، ولا بين الطيب والخبيث . فتجمع المال من أى مكان ومن أى مصدر ، لا يهمك إلا أن تزيده ، حتى بانتهاك حرمات الله ، وتظلم وتفسد فى الأرض ، وتفعل أى شىء فى سبيل المال . حينئذ يُذهِبُهُ الله عنك فى الدنيا ويزيل نعمته .

المـال والنفـوذ نعمة .. أم نقمة ؟

ان الناس تعتقد أن الخير فى المال ، مع أن الحقيقة غير ذلك ، لأن المال قد يكون نقمة عليك بدلا من أن يكون نعمة . . وتعتقد أن رضا الله فى الثروة والنفوذ والسلطان ، مع أن ذلك قد يكون عدم رضا . .

الله سبحانه وتعالى قد بين ذلك فى كتابه العزيز . . وأعطانا الأمثلة على أن المال يمكن أن يكون هو الطريق للكفر والطغيان والمعصية . . والأمثلة كثيرة ولكننا سنتحدث عن بعض منها ، واقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذا الرجل لا يهمنا من هو . . لأن قصص القرآن لا تهتم بأشخاص بعينها ، ولكنها تعطينا سلوكا إيمانيا . والقصة فى القرآن تتكرر فى كل زمان ومكان . . فهى عامة وليست قائمة على خصوصية أبطالها . . إلا قصة مريم ابنة عمران وعيسى بن مريم عليهما السلام . . ولذلك فإنها القصة الوحيدة التى

خصصت وعينت أشخاصها فى القرآن الكريم لأنها لا تتكرر أبدا .

هذا الرجل حين جاء ابراهيم عليه السلام ليهديه الى منهج الله ، وقف يقارع ابراهيم بالحجة مقاوما لمنهج الله . . لقد اعطاه الله سبحانه وتعالى الملك ، ومع الملك النفوذ والسلطان والمال ، ولكنه بدلا من أن يشكر الله على نعمه ، ويعترف بفضل الله عليه ، بدأ يجادل ابراهيم بالحجة . . حجة الكفر . . فكأن الملك الذى أعطاه الله له لم يجعله يؤمن . . بل جعله يكفر والعياذ بالله . . وينكر وجود الحق سبحانه وتعالى .

وعندما لفته ابراهيم عليه السلام إلى ان الله تبارك وتعالى هو الذى يعطى الحياة وهو الذى يأخذها ، لم يجعله ذلك يعترف بعظمة الحق سبحانه وتعالى فى أنه هو المحيى المميت . . فقال : (أنا أحيى وأميت) كيف يمكن لإنسان ان يحيى ويميت ؟ . . قال الكافر الذى وهبه الله الملك إئتونى بهذا الرجل . . ثم قال اقتلوه . . وقبل أن ينفذ القتل قال عفوت عنك ، ثم التفت إلى ابراهيم مدعيا انه يحيى ويميت . . وأنه بإصدار حكم الاعدام على الرجل قد أماته ، وبعفوه عنه قد أعاد اليه الحياة . . أى أحياه !!

وهكذا لم تزد النعمة ولا الملك ولا المال هذا الرجل إيمانا وشكرا لله سبحانه وتعالى ولكنه زادته كفرا والعياذ بالله . .

وحين تحداه ابراهيم عليه السلام بآية كونية فوق طاقة البشر وهى الشمس . . وقال له ان ربى يأتى بالشمس من المشرق

فأت بها من المغرب . . حينئذ صدمته الحقيقة فبهت . . لأنه لم يكن ينتظر ولم يلتفت إلى آيات الله فى الكون .

إن الله سبحانه وتعالى يذكرنا بأن الانسان اذا اغتر بالمال ، واتخذه عنوانا للقوة والنفوذ ، ونسى فضل الله جل جلاله عليه فى أنه هو الذى رزقه بهذا المال . . فإنه فى هذه الحالة يطغى ، والطغيان هو تجاوز الحد . . أى أن تأخذ ما ليس لك حق فيه . ولذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾

(الآية ٦ ، ٧ سورة العلق)

ان المال يطغى الانسان ويجعله يحسب انه يستطيع ان يفعل أى شيء بقوته الذاتية . . ولماذا لا . . وهو يملك المال الذى يستطيع ان يحقق به ما يريد ؟! حينئذ يحسب أنه قد استغنى عن الله سبحانه وتعالى ولم يعد فى حاجة إلى عونه ولا إلى رضاه ، فيطغى ويغتر .

ولعل قصة قارون ترينا هذا بوضوح . . فقارون منحه الله من الأموال ما لم يمنح أحدا من خلقه . . فهل زاده هذا النعيم إيمانا وشكرا وذكرا لله ؟! . أم جعله يغتر وينسب المال لنفسه . . ويقول أنه قد حصل عليه بعلم من عنده وبقوته الذاتية وليس بفضل الله !

وهذا هو القرآن الكريم . . يروى لنا قصة قارون :

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ

﴿ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾

(الآية ٧٦ سورة القصص)

لقد أعطى الله سبحانه وتعالى لقارون كنوزا وأموالا لم يعطها لأحد من عباده ، ولكن هذه الأموال جعلته بدلا من أن يسجد لله شكرا .. يغتر ويبغى على الناس ويفسد فى الأرض . وعندما ذكروه بمنهج الله وبنعم الله عليه قال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

قارون نسب الفضل لنفسه .. ونسى فضل الله عليه .. وحسب أنه استغنى عن الله جل جلاله .. فبماذا جازاه الحق سبحانه وتعالى على طغيانه وكفره ؟! .. واقرأ قول الحق يحكى عاقبة قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾

(الآية ٨١ سورة القصص)

إن المال فى كثير من الأحيان ـ يكون نقمة على صاحبه .. لأنه ـ فى حالة ضعف ايمانه ـ يحس أنه استغنى عن الحق سبحانه وتعالى ، ويكفر بالله وينسب الفضل لنفسه .. ثم بعد ذلك يموت تاركا ماله .. ويلقى الله فى الآخرة وحده

بلا مال ولا جاه . . ليعذب أشد العذاب .

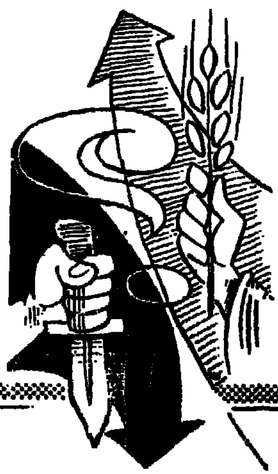
فهل كان المال فى هذه الحالة نعمة أم نقمة ؟

إن الإنسان أحيانا اذا كان رزقه قليلا فإنه يحس بحاجته إلى الله . . فإذا جاءه المال أفسد حياته ، وحياة أهله ، وربما دفع هذا المال الكثير ابناءه الى ادمان المخدرات أو القمار . . أو يصيبه الله بداء بلا شفاء ، فينفق مئات الألوف من الجنيهات وهو يتناول الدواء المر ولا يبرأ . . وهو يصرخ من الألم ، وهو محروم من كل شيء ، فى بيته كل ما تشتهيه النفس البشرية من طعام أو شراب ، ولكنه محروم منه . . لا يستطيع أن يضع لقمة فى فمه ، ولا يستطيع ان يأكل قطعة من اللحم الذى يحبه . . واذا أكلها سببت له آلاما لا تطاق . . أهذا خير ؟

هذه الأمثلة وغيرها التى يعطيها لنا القرآن الكريم . . والتى سنتناولها بالتفصيل تؤكد لنا أن المال ليس خيرا مطلقا كما يتوهم بعض الناس . . فقد يلعن الانسان اليوم الذى جاءه فيه هذا المال الوفير الذى حطم حياته وسلبه راحته . . وجلب له ولأولاده الشقاء . .

هذه هى عقوبة الدنيا ، فمادام هو لم يرع الله فى ماله ، فالله لا يرعاه فى هذا المال . . بل يسلطه عليه ليقوده إلى جهنم والعياذ بالله .

الفصل الرابع



ما هو الخير
وما هو الشر

قبل أن نبدأ فى الحديث عن الخير والشر ، لابد أن نتناول أولا ما هو الخير ، وما هو الشر . ذلك ان مفهومهما مختلط فى أذهان الكثيرين . . فالخير هو ما يوصلك لغاية ليس بَعْدَها بَعْد . فالإنسان يولد فى الدنيا ، ثم يكبر ثم يحصل على الشهادة الابتدائية والاعدادية والثانوية ويتخرج فى الجامعة ، وبعد ذلك يحصل على الماجستير أو الدكتوراه ، ويعيش عمره فى الدنيا ، ثم بعد ذلك يموت . . ثم يبعث ، فإن كان صالحا دخل الجنة ، وهذا هو النعيم الأبدى وبعد ذلك لا شىء . . أى ليس بعد الجنة بَعْد .

إذن فالهدف أو الغاية من الحياة هو أن تصل الى نعيم الجنة . . وهذه الغاية لا تحصل عليها . . إلا إذا اتحدت مراداتك مع منهج الله ، حينئذ تكون قد وصلت إلى الخير الحقيقى الذى لا خير بعده .

والشر فى عرفنا . . هو كل ما يتصادم مع ما تريده النفس . . فكل شىء تشتهيه أو تطلبه . . ولا يتحقق ـ أى لا يحدث ـ تعتبره شرا ، لأنك كنت تريد وتتمنى أن يحدث هذا الشىء . . ولكنك منعت منه . .

فإذا كنت تاجرا مثلا وتعاقدت على صفقة على أساس انها ستحقق لك ربحا كبيرا ، ثم تغيرت الأسعار ، وبدلا من أن تربح خسرت . فى هذه الحالة تعتبر أن ما حدث لك كان شرا ، فإذا كنت تريد وظيفة ولم توفق فى الالتحاق بها اعتبرت هذا شرا ، وإذا كنت تتطلع إلى منصب أو جاه أو سلطان

وضاع منك حسبت هذا شرا .

ان هذا يعنى ان الشر فى عرف البشر هو ما يتصادم مع رغباتهم وشهواتهم وأهوائهم ، بصرف النظر عما إذا كان ما يتمنونه يتفق مع منهج الله أو لا يتفق . فالإنسان حين يريد الوصول إلى غاية ، فإنه لابد أن يعانى فى سبيل ذلك أو يبذل جهدا .

الطالب غايته مثلا أن ينجح فى الامتحان ، ولذلك فهو يذهب إلى المدرسة فى كل يوم ، ويسهر فى المذاكرة ، ويتحمل كثيرا ويمنع نفسه من أن يستمتع بسهرة مع أصدقائه ، أو يشاهد برامج محببة له فى التليفزيون . . أو يشارك الأسرة فى مناسباتها الاجتماعية ، ويغلق على نفسه باب حجرته ، ويظل يذاكر لا ينام إلا قليلا ، حتى يصل الى غايته .

ان التجربة الانسانية تدلنا على ان الانسان الذى يعطى نفسه كل ما تشتهى . . لا يحقق خيرا فى حياته . لماذا ؟ إنه لابد لكى نحْصل على الخير من عمل ومعاناة وتضحية . .

فالطالب مثلا الذى يقضى معظم وقته فى اللعب ، ويحقق لنفسه كل شهواتها ، ويستمتع بكل دقيقة فى اللهو ، إنما يحقق شهوة عاجلة لنفسه ، ولكنه لن يصل إلى غاية أبدا ، فيصبح بلا مستقبل وبلا حياة تعطيه العيش الكريم ، وكذلك فى كل شىء فى الدنيا . . فالتاجر إذا لم يتعب فى البحث عن البضاعة الجيدة ، المعتدلة الثمن التى يقبل الناس على شرائها ، واذا لم يتصف بالامانة والصدق ينتهى بالافلاس . . ولا يحقق ما يريد .

وإذا كنا نريد أن نعمل من أجل الخير ، فالخير الحقيقى هو ما يأتى من الله سبحانه وتعالى ، لأنه هو الشىء الباقى الذى لا يزول ، وهو الشىء الذى يزيد ولا ينقص . . ينمو ولا يقل . فكل ما فى الدنيا يقل ماعدا الخير عند الله تبارك وتعالى ، فإنه يضاعفه أضعافا مضاعفة .

وهناك مثل يقول : المال خادم جيد وسيد ردىء . . أى انك اذا حصلت على المال ، استطعت أن تحقق به كل شىء . . هو الذى يشترى لك ما تريد . . ويأتيك بما تشتهى ، هذا إذا جعلته خادما لك . . ولكن إذا جعلته سيدا لك وكنزته ، وأصبح هدفك ان تجمع المال من حلال أو حرام . . فإنك تصير عبدا للمال ، لا تستفيد منه وإنما هو يسجنك ، فيحرمك مما تشتهى لأنك لا تريد انفاق مالك ، ولا تتمتع به لأنك لا تريد أن تفارقه .

ومن الضرورى ان تعلم ان المال ليس رزقا مباشرا ، بل هو رزق غير مباشر . . لأنك تشترى به الأشياء ، ولكنك لا تستطيع ان تنتفع به انتفاعا مباشرا كان تأكله مثلا . ولكى تتضح هذه الصورة أقول لك . .

فلنفرض أن عندك جبلين من الذهب والفضة ، وأنت جائع وعطشان ، هل تستطيع أن تأكل من جبل الذهب ؟ أو تشرب من جبل الفضة ؟ . . طبعا لا . . فإذا جاء أحد من

الناس ومعه قربة ماء يريد أن يبيعها لك بنصف جبل الذهب أو تموت عطشا . ألا تعطيه نصف ما تملك ؟ . . وإذا جاءك إنسان بطعام وأنت تكاد تموت من الجوع ، وطلب منك نصف جبل الفضة . . أفلا تعطيه له ؟ . . طبعا تعطيه .

إذن فالمال ليس رزقا مباشرا . . لا تستطيع ان تأكله أو أن تشربه ، ولكنه رزق غير مباشر . . تشترى به ما تأكله أو ما تشربه أو تلبسه مما قسم الله لك .

ان كل ما يقابلك فى الدنيا اذا أخضعته لمنهج الله كان خيرا ، وإن أخرجته عن منهج الله كان شرا . . فالمال إن استخدمته فى إعانة الفقير والمسكين واليتيم ، وفى الصالح من الأعمال كان خيرا ، وإن استخدمته فى الإفساد فى الأرض كان شرا ، والجاه إن استخدمته فى إزالة الظلم وقضاء حوائج الناس والحكم بالحق كان خيرا ، وإن استخدمته فى ظلم الناس والطغيان والبغى كان شرا . والعمر إن أفنيته فى العمل الصالح كان خيرا ، وإن استخدمته فى إيذاء الناس والعدوان عليهم كان شرا .

وهكذا فإنه لا يوجد معنى مطلق للأشياء . . ولكن كل شيء حسب استخدامك له . . إن الشر ـ كما قلنا ـ يأتى من الانسان فى الكون حسب وسيلة استخدامه .

الاحداث فى الكون كثيرة . . وان كانت لا تخرج إلا من خلال ثلاث قنوات رئيسية :. « أحداث تقع عليك وليس لك فيها يد ولا اختيار » . إنها أقدار من الله سبحانه وتعالى . . كأن تكون سائرا فى الطريق ويقع عليك حجر أو تصدمك سيارة ، أو يصاب ابنك فى حادث ، أو يصيبك مرض من الأمراض . . كل هذه الأحداث وغيرها . . تقع عليك بلا اختيار منك ولا تستطيع ان تدفعها عن نفسك .

وهناك « أحداث تقع عليك من غيرك » كأن تفاجأ بإنسان يتشاجر معك ، أو يهاجمك فى الطريق ، أو يدفعك فتسقط على الأرض أو غير ذلك .

وهناك « أحداث لك فيها اختيار » . . وأولها منهج الله سبحانه وتعالى فى افعل ولا تفعل . فما دام الله جل جلاله قد قال لك افعل . . فأنت قادر ـ باختيارك ـ على ألا تفعل ، وإلا ما كان الحق جل جلاله قال لك افعل ، وإذا قال الله سبحانه وتعالى لك لا تفعل . . فأنت قادر ـ باختيارك ـ على ان تفعل ، وإلا ما قال لك الله جل جلاله إفعل .

لقد وضع الله سبحانه وتعالى الاختيار الانسانى لكى يكون هناك حساب وثواب وعقاب . . ويكون الثواب والعقاب عدلا ، كذلك فى أمور حياتك العادية . . ماذا تأكل ؟ . . مع من تجلس ؟ . . ماذا تلبس ؟ . . وغير ذلك من أمور الحياة العادية .

ان الأشياء التى ليس لك دخل فيها ، ولا تقع بإرادتك ، ولا تحدث باختيارك هى قضاء الله الذى يريده فى كونه . وقضاء الله سبحانه وتعالى دائما خير . مهما بدا لنا فى نظرتنا الضيقة . . وعلمنا المحدود أنه شر ، كل ما يأتى من الله خير ، ولكن الذى يجعل الصدر يضيق ، والصبر لا يحتمل . . هو أننا لا نرى الصورة كاملة أمامنا .

لقد أراد الحق سبحانه وتعالى ان يعطينا مثلا لذلك فى سورة الكهف . . فى اللقاء الذى تم بين موسى عليه السلام والعبد الصالح . . فجميع الأعمال التى قام بها العبد الصالح ، كانت من وجهة نظر موسى شرا . . ركب سفينة لمساكين فخرقها لتغرق ، ولقى غلاما لم يبلغ مرحلة التكليف فقتله بدون ذنب . . ثم دخل إلى قرية لئام رفضوا أن يعطوه لقمة خبز وهو جائع . . فبنى لهم جدارا كان سينهدم .

كل هذه الأعمال ـ من وجهة نظر موسى عليه السلام ـ شر ، ولكنها كانت كلها أقدار الله المليئة بالخير . فالسفينة تم خرقها حتى لا يستولى عليها ملك ظالم . . فنجت بذلك وبقيت للمساكين يتعيشون منها ، والغلام كان سيقود أبويه إلى الطغيان والكفر . . فبدلهما الله غلاما صالحا ، ورحمهما بأن أخذ ابنهما قبل سن التكليف ليدخل الجنة بلا حساب . والجدار كان تحته كنز لولدى رجل صالح . . فحفظه الله لهما حتى يكبرا ويأخذاه بدلا من أن يستولى عليه أهل القرية اللئام ، وهذا ما تعرضنا له تفصيلا فى كتاب « القصص القرآنى فى سورة الكهف » .

إذن ما يبدو لنا على السطح من أحداث . . لا نستطيع

نحن أن نكون حكما فيه . . لأننا لا نرى الصورة كاملة . . نرى أشياء وتغيب عنا أشياء كثيرة . . والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الاسراء)

ويقول جل جلاله :

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الروم)

إننا يجب أن نعود أنفسنا . . على أن نستقبل كل ما يأتى من الله على أنه خير ، حتى دون أن نعرف الحكمة من ذلك . فالله جل جلاله بين لنا أننا لا نصلح حكما على الأحداث ، ولا على ما يقع لنا فى هذا الكون .

ولذلك نجد فى كتاب الله العزيز آيات كثيرة . . تطالبنا ألا نأخذ الأحداث بمفهومنا نحن أو بعلمنا المحدود . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وهكذا يخبرنا الحق تبارك وتعالى اننا لا نصلح أن نكون حكما على الأحداث التى تقع لنا فى الكون ، فقد نكره شيئا حدث لنا ، ويكون فيه الخير الكثير ، ولكننا لا نعلم ، ونعتقد

انها مصيبة ، مع انها فى الحقيقة خير أراده الله جل جلاله لنا . وأحيانا نعتقد أن ما يحدث هو خير لنا ونحبه ونفرح به ، ولكنه فى الحقيقة شر وشر كبير . .

إن علينا ألا نتورط فى الحكم على الأقدار التى تقع لنا . . لأن الناس لا يميزون بين الخير والشر ، ويجهلون المفاهيم الحقيقية لما يحدث . . بل لابد أن نأخذها بمفهوم الخيرية ، وأقدار الله لا تأتى للناس إلا بالخير . . ولكن الشر من صنع البشر .

إننا اذا تحدثنا عن إنسان كان غنيا ، أو كان فى يده الملك ، ثم نزعه منه الله أو أذهب عنه المال ، هذا الانسان يعتقد ان ما حدث له شر فيلعن الدنيا ويسخط عليها . . ويشكو إلى الله من أقداره . . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(الآية ٢٦ سورة آل عمران)

ومادام الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا أن نتوجه اليه بقولنا : « بيدك الخير » . . فإتيان الملك خير ، ونزعه خير . إتيان الملك لا أحد يختلف عليه ، لا أحد يختلف على أنه خير . فمن أتاه الله الملك يفسر هذا على أنه خير ، وكل الناس تفسره على أنه خير ، ولكن كيف يكون نزع الملك خيرا ؟!

الحق سبحانه وتعالى يقول : « وتنزع الملك ممن تشاء » . . أى ان زوال الملك لا يحدث أبدا اختيارا ، بل لابد أن ينزعه الله تبارك وتعالى من الناس نزعا ـ أى رغم ارادتهم ـ وهم يتشبثون بالملك ولكن الله يأخذه منهم قهرا وقسراً . . فكيف يكون ذلك خيرا ؟

نقول ان الله تبارك وتعالى يرى الصورة كاملة . . وينظر إلى أحداث الدنيا وما ستؤدى إليه بالنسبة للانسان . . من نار يعذب فيها أو جنة ينعم بها . ومن هنا فإنه لا فاصل بين الأحداث ، ولكنها أحداث متصلة . . مقدمات ونتائج مرتبطة ببعضها البعض . . فمن قدم العمل الصالح . . وجد الجنة فى الآخرة ، ومن أفسد فى الأرض وعصى . . وجد العذاب فى الآخرة .

ومادامت المقدمات هى التى تؤدى إلى النتائج ، فإن كانت المقدمات سليمة أدت الى نتائج سليمة ، وان كانت فاسدة ، فانها لا يمكن ان تقدم الا نتائج فاسدة ، ومادام الملك قوة وسلطة وسطوة وأمر مطاعا . فهى تغرى الانسان أحيانا بالطغيان والتجبر ، وأحيانا بظلم الناس . فإذا نزع الله جل جلاله الملك من إنسان ، فلربما أنقذه بذلك من معاص قد تجعله خالدا فى النار .

ان الحق جل جلاله بعلمه المحيط بكل شىء ، يعلم أن إنسانا ما سيتجبر ويطغى ويظلم ، وهو برحمته يريد أن ينقذ هذا الانسان من عذاب عظيم ، فينزع منه الملك ليمنع عنه كارثة قادمة . . وينجيه من شقاء أبدى . . أيكون هذا خيرا أم شرا ؟! .

أن تزول عنه قوة . . لو استمرت فإنها لا تبقى إلا سنوات قليلة بقدر ما بقى من العمر ثم تزول ، أو أن يعفيه الله عنها بزوالها عنه رحمة به وشفقة عليه حتى لا يقع فيما يغضب الله .

ان الانسان يعتبر لحظة نزع الملك منه انه قد حدث له شر وشر كبير ، ولكنه سيأتى فى الآخرة ويحمد الله سبحانه وتعالى ويسجد له شكرا لأنه نجاه من النار .

كذلك العز فى الدنيا قد يورث الانسان المعصية ، ويبعده عن الله ، ويجعله يطغى ويتجبر . فإذا أزال الله سبحانه وتعالى هذا العز عنه ، أفاق وتنبه وعرف أنه محتاج إلى الله ، ورفع يده إلى السماء وقال يارب ، وربما أخذ الطريق المستقيم بعد أن كان سيأخذ الطريق المعوج الذى كان سيودى به إلى الهلاك .

إذن فكل قدر من الله تبارك وتعالى مهما بدا لنا من حيث الظاهر ، أو بمفهومنا البشرى شرا ، فإنه فى حقيقته خير . لأن الله سبحانه وتعالى خلقنا وسخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض . وهو جل جلاله يريد بنا الخير ، ولكن الإنسان يتعجل الاشياء . ولا يدرى ـ لغفلته ـ إن الله سبحانه وتعالى له أقداره ، وله حكمته فى ملكه ، ونحن ان عرفنا شيئا . . غابت عنا أشياء .

بعض الناس تجده ضيق الصدر . . يقول لقد دعوت الله بكذا وكذا ولكنه لم يستجب ، ونقول له : إن فى الاستجابة خير وعطاء ، وفى عدم الاستجابة ـ أيضا ـ خير وعطاء . فقد تكون دعوت بما هو شر لك وأنت لا تدرى ، ولو استجاب الله لدعائك لوقع عليك ضرر كبير !!

ألا تدعو الأم أحيانا . . على أولادها فى ساعات الضيق والغضب ؟! ألا يدعو الانسان فى انفعالاته على أقرب الناس إليه ؟! . . ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الله تبارك وتعالى قد استجاب لدعاء الأم بأن يأخذ أولادها من الحياة وأماتهم فعلا . هل تكون الأم سعيدة فى هذه الحالة ؟ . . هل تشكر الله تبارك وتعالى على استجابته لدعائها ؟.

كذلك دعاء الأب على أولاده ، أو الزوجة على زوجها فى لحظة الانفعال . . لو أن أبواب السماء استجابت لهم . لأصابهم حزن كبير وضرر بليغ . . ولكن فى عدم الاستجابة عطاء لهم وخير لهم . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾

(الآية ١١ سورة الاسراء)

هكذا ترى ان الدعاء الذى تحسبه خيرا وتتمنى ان يستجاب لك ربما كان شرا لك . . ذلك انك لا تعرف الصورة كلها . فالغيب وما سيحدث محجوب عنك . انك تقيس الخير على الزمن أو الوقت الذى تعيش فيه ، ولكن هذا المقياس خاطىء . . لماذا ؟ . . لأنه تأتى أشياء بعد ذلك تجعل هذا الخير الذى كنت تتوهمه شرا كبيرا ، بينما كنت تلح فى الدعاء وتستعجل الاجابة ! ولكن الله بحكمته لا يستجيب لك . . لأنه سبحانه وتعالى بعلمه يريد أن ينجيك من شر قادم محجوب عنك .

انك تريد مثلا أن تكون قريبا من حاكم أو صاحب نفوذ ، ولكن الأحداث القادمة ربما أخرجت هذا الحاكم من حكمه وجاء حاكم جديد يُنَكِّلُ بكل أنصار الحاكم السابق ، أو ربما هذا الحاكم الذى تريد أن تتقرب منه ينقلب عليك ويذيقك من بأسه ما لا تحتمل .

ألم نسمع عن حكام انقلبوا على أقرب الناس إليهم وأعدموهم ؟ سمعنا ورأينا هذا كثيرا ، خصوصا فى الثورات التى تحدث فى بعض الدول .. والصورة ليست بعيدة عن أذهاننا . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الانعام)

إنك حين ترفع يديك إلى السماء وتدعو بشىء وتلح فى الدعاء أن يحققه الله لك ، لابد أن تضع فى ذهنك أنه إذا استجيب دعاؤك فهو خير . وإذا لم يستجب فهو ـ أيضا ـ خير . لأن الله يكون بذلك قد منع عنك شرا كبيرا .

الإلحاح على خير المال

الناس فى حياتهم يكون إلحاحهم دائما على خير المال . . وتجد بعضهم يتعجب كيف يعطى الله سبحانه وتعالى لإنسان كافر العزة في الدنيا ويعطيه المال ؟ . .

الله جل جلاله قد لفتنا إلى أن هذا ليس رضا منه ، وأنه أحيانا قد ينعم على الكافر ليزداد إثما وكفرا . . لأنه لو منع عنه النعمة ربما أفاق وتاب ، ولكن لشدة غضب الله سبحانه وتعالى عليه فإنه يمد له فى أسباب الدنيا .

واقرأ قول الحق تبارك وتعالى عن الكافرين :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

(الآية ٥٥ سورة التوبة)

الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم . . وفى هذا خطاب لجميع المسلمين .

يقول جل جلاله : إياكم ان تأخذوا المال والولد . . على أنه عطاء ورضا من الله ، وأن تظنوا ان الخير فيهما ، فلو انك نظرت إلى كل ما تعطيه الدنيا . . فإنه لا يستحق أن تعجب . . لأنه ربما يكون سببا فى عذابك . فالمال والولد يجعل الإنسان يلتفت إلى النعمة ولا يتذكر المنعم ، وإذا لم يتذكر

الانسان الله سبحانه وتعالى فأنه يهمل منهجه ، والمال والولد فى الحياة الدنيا يجعل الانسان يخاف أن يتركهما . . والذى لا يؤمن بالآخرة فالدنيا هى كل زمنه ، فإن فاتها كان ذلك مصيبة له ، وان فاتته كان ذلك مصيبة عليه . . ولو أنه مؤمن بالله واليوم الآخر . . لآمن أنه لو فاتته الدنيا . . فسيجد عند الله خيرا منها .

ان الآية الكريمة تدلنا . . على ان للمال وحده اعجابا ، وللأولاد وحدهم اعجابا ، فمن عنده مال يعجب بما عنده ، ومن عنده أولاد يعجب أيضا بما عنده ، فإذا اجتمع الاثنان للانسان . . كان الاعجاب أكثر وأشمل .

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى ان اجتماع المال والولد عند انسان لا يجب أن يثير الاعجاب فى نفوسنا ، وانه إذا أمد الكافر بالمال والولد ، فإنه ليس رفعة لشأنه ، وإنما ليعذبه بهما فى الدنيا والآخرة . .

إن عابد المال يعيش رغم غناه فى خوف وهلع . . إنه فاقد للأمان لأنه يخشى الفقر ، ولذلك فهو يقتر على نفسه وعلى أولاده ، ويحرص على كل قرش يصرفه . . فتجده ـ مع أنه يملك المال ـ خائف أن يتمتع به حتى لا ينقص أو يزول !! وهو فى ذل دائم . . إنه فى سبيل الحفاظ على ماله مستعد لارضاء أصحاب النفوذ ولو ارتكب المعاصى ليحتفظ به ، وهو يصاب بالذعر من أى حدث خوفا على ماله من الضياع .

انه ـ فى ظاهر الأمر ـ يبدو أمام الناس وكأنه متمتع بما يملك ، ولكنه فى الحقيقة يعيش فى بؤس وخوف داخل نفسه .

وأول أضرار حب المال أنه يلهى صاحبه عن الله ، ويقسى القلوب ويغرى بأكل حقوق الضعفاء .

وهكذا نجد أن عطاء الله للكافرين ليس حبا لهم ، وإنما استدراجا لِتَحُقَّ عليهم كلمة العذاب .. انه يلهى هؤلاء الكفار بكفرهم وعدم إيمانهم عن منهجه ، ويعطيهم ويزيدهم مالا ، حتى يعبدوا المال ويتركوا عبادة الله ، وتظل ثرواتهم تلهيهم عن عبادته حتى يأتى أجلهم وتزهق أرواحهم وهم كافرون .. ثم يوم القيامة ماذا يحدث ؟

اقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

(الآية ٩١ سورة آل عمران)

أكان الذهب والمال خيرا لهم ؟.. أم كان شرا كبيرا ؟

الفصل الخامس



الخير والدنيا

بعض الناس يتوهم أن الدنيا لم تخلق على الخير . . كيف هذا ؟ .

نحن نرى أمامنا صورا كثيرة . . نرى أمما غنية ، وأمما فقيرة . نرى من يموت جوعا ، ومن يموت من التخمة ، ونرى الظلم فى الأرض ، ونرى من هو أعمى . . ومن هو مشلول لا يستطيع أن يتحرك ، ومن يصيبه المرض فيفقده قوته ، ونرى الظلم والطغيان بين البشر . ثم أين هو العدل فى طفل يموت جوعا ؟ ، أو رجل مسن أو امرأة عجوز وهم يكابدون الشقاء فى الأرض ؟ . .

إننا لو تأملنا قليلا ، لوجدنا أن كل هذه الداءات قد وجدت لأن شرع الله سبحانه وتعالى لا يطبق ، إنما الانسان ـ بغروره وجهله ـ هو الذى أفسد فى الأرض وأصابها بهذه الداءات كلها .

الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾

(الآية ١٠ سورة فصلت)

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : « وقدر فيها أقواتها » فالغذاء الموجود على الأرض يكفى كل البشر . . منذ عهد آدم حتى قيام الساعة . والدليل على ذلك أنه إذا حدثت مجاعة فى أى بلد فإنها تستورد حاجتها من الغذاء ، أو تجيئها حاجتها من دول أخرى .

إذن فالغذاء الذى يحتاجه البشر جميعا موجود على سطح الأرض ، ولكنه مكدس فى دولة ،. وقليل فى دولة أخرى . . والقضية هى. سوء توزيع ، وليست نقص غذاء بالنسبة للبشر . لقد سخر الله سبحانه وتعالى الأرض وما عليها لكل خلقه . . فقال جل جلاله :

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴾

(الآية ١٠ سورة الرحمن)

والأنام هم خلق الله من عهد آدم حتى قيام الساعة . . ولكن أقال الله جل جلاله أي أرض وضعها لأى خلق من خلقه ؟ . . لم يقل ولم يحدد . . لأن الأرض كلها للناس كلهم ، ولكن الإنسان جاء ليقيم دولا ويضع حدودا . . هذه الدول والحدود هى التى صنعت المشكلات فى العالم ، وهى التى تقوم بسببها الحروب ، وتحدث بسببها الغزوات .

والظاهر للعيان إن هناك دولا غنية قليلة العدد ، كثيرة الخير ، وهناك دول فقيرة كثيرة العدد قليلة الخير ، وهذا ما أوجد نوعا من عدم التوازن الموجود حاليا . ولو أن الأمور تركت كما شرع لها الله ، لوجد كل إنسان ما يحتاجه من غذاء دون عناء أو تعب ولحدث التوازن . .



وليت الأمر توقف عند هذا الحد . لقد وجدنا الدول الغنية تتحكم فى أسعار الطعام وانتاجه . دولة كأمريكا مثلا . . تدفع لمزارعيها تعويضات حتى يمتنعوا عن زراعة القمح لكى تحتفظ بسعره عاليا ! ودولة كالبرازيل تلقى بالبن فى البحر حتى لا تنخفض أسعاره ! وهناك دول أخرى تأخذ اللبن والبيض وغيره من أنواع الطعام ثم تهدره وتلقى به فى الماء لتحتفظ بسعره العالى !! رغم أن هناك الملايين من الأفواه فى العالم تحتاج اليه . . تحتاج إلى رغيف الخبز أو كوب اللبن أو البيض لتأكله . هذا الاهدار لنعم الله تبارك وتعالى هو الافساد فى الأرض . . أن تأخذ النعمة وتمنعها عن خلق الله . . وتحرم عباده منها .

ولو أن هذه النعم كانت من انتاج الإنسان ، لقلنا ربما كان ذلك من حقهم ، ولكنها من خلق الله . . إنهم لم يخلقوا الأنعام التى تعطينا الألبان واللحوم ، ولم يخلقوا الطيور التى تعطينا البيض ، ولم يخلقوا الأرض التى تنتج القمح وكل الخيرات ، ولم يخلقوا حبة القمح التى أنبتت سنابل القمح ، ولكنهم بدلا من أن يجعلوا نعمة الله خالصة لعباده ، وأن يرسلوا ما زاد عن حاجتهم كمعونة للدول الفقيرة . . ألقوها فى البحر ليمنعوا نعم الله عن خلق الله !!

إننا نجد هناك دولا لا تأخذ بأسباب الله فى الأرض وعندها أراض شاسعة صالحة للزراعة ، ولكنها بدلا من أن تتجه بكل

قوتها البشرية لاستثمار هذه الأرض وزراعتها ، إنشغلت بمشاكل الحروب والثورات ، وتغيير نظم الحكم والصراع على السلطة .

لقد شغل الإنسان نفسه بالصراع على الدنيا ، بدلا من أن يقوم بمهمته وهى عمارة الأرض .

هذا هو الظلم الإنسانى . . الذى يحرم على عباد الله نعم الله . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾

(الآية ٥٩ سورة يونس)

وهكذا نرى ظلم البشر الذين قسموا الأرض الى دول وحدود ، وأماكن حرموها على عباد الله ، مع أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض كلها للناس كل الناس . . فمن الذى أوجد هذا الشقاء البشرى ؟

إن الذى أوجد هذا الشقاء هو عقل الانسان الذى خلقه الله له ليختار بين البدائل ، ولكنه انشغل بكل شىء ما عدا مهمته فى الحياة ـ وهى الاصلاح فى الأرض ـ انشغل بالتدمير ، وانشغل بالسيطرة على البلاد والعباد . . وانشغل بصراع الدنيا أما مهمته الاساسية (التعمير) فقد تغافل عنها واستهان بها . . فكان ما كان مما نرى ونسمع !!

وهكذا أدى الاختيار البشرى إلى الشقاء بدلا من أن يؤدى إلى الخير ، والى إهدار نعم الله بدلا من أن ينميها ، وزيادة

المشاكل على الأرض ، بدلا من أن يحلها . وكان بعد البشر عن منهج الله كارثة عليهم .. لقد تصرفوا بعقولهم بدلا من أن يتصرفوا بالمنهج .. فأفسدوا ولم يصلحوا .

الغرور الانسانى صور له أن باستطاعته أن يغير من نظام الكون بهدف التعمير والاصلاح .. فماذا فعل ؟! أخذ يقطع الأشجار والغابات - التى هى الرئة لتنفس الكون - وبنى بدلا منها المصانع التى ملأت الجو بالتلوث ، بعد أن كان طاهرا نقيا .. فأحدث ثقبا فى طبقة الأوزون مما يهدد الحياة على الأرض ، وألقى المخلفات والكيماويات فى الأنهار فلوث الماء الذى أنزله الله من السماء طاهرا نقيا ، كما أفسد العقل الانسانى الزرع .. فاذا به يلقى عليه كميات هائلة من السموم بدعوى مقاومة الآفات ، فإذا بهذه السموم تلوث النبات الذى يتغذى به الانسان والحيوان .. فتنفذ إلى أجسادنا لتصيبنا بالعجز والمرض والموت ! ..

وعندما تنبه العلماء إلى ما تفعله هذه السموم فى الثمار والحيوان والانسان ثابوا الى رشدهم وتنبهوا إلى سوء تقديرهم .. ثم حرموا استخدامها بعد أن ملأوا الدنيا ضجيجا بأن هذه المبيدات هى الحل لزيادة محصول الأرض والقضاء على الآفات ..

كذلك استخدموا الكيماويات فى علاج الأمراض ، ثم بدأوا يحرمونها لأنه ظهر لها آثار جانبية تفوق آثار المرض نفسه ، كل هذا حدث لأن علم الانسان قاصر وعقله محدود ، علم أشياء وغابت عنه أشياء .. وهو يتصرف بعلمه القاصر ، ويصور له عقله أنه سيصل الى خير عميم ، ثم يكشف خطأه ويتراجع عما بدأه .

انه لا يرى الا مشاكل الحاضر ، ويغيب عنه ما سيحدث فى المستقبل ، تماما كما أخذت بعض الدول تتشنج باسم الحرية وتطالب بحرية الزنا ، بل أن البرلمان البريطانى زاد على ذلك فى اباحة الشذوذ الجنسى ، وأخذوا يتباهون بأنهم حققوا أكبر قدر من الحرية الشخصية للإنسان . . بينما الذى يحقق أكبر قدر من الحرية البشرية هو منهج الله .

ثم ماذا حدث ؟ . .

انتشر مرض الايدز . . ذلك المرض القاتل الذى لا علاج له ، والذى دوخ العلماء حتى الآن بلا فائدة ، وإذا بنفس الذين تحدثوا عن الحرية الشخصية ، وإباحة الزنا والشذوذ الجنسى . . يطالبون الناس بالتمسك بالفضيلة! هل فعلوا ذلك عن إيمان ؟ . . طبعا لا . . إنما فعلوه عن اضطرار وقهر ، لينجوا بأنفسهم من مرض يؤدى الى الموت . ولو أتبعوا منهج الله لأراحوا أنفسهم من هذا الداء الوبيل الذى ينخر الآن فى تلك المجتمعات .

كل هذه حقائق تحدث حولنا فى الكون ولا نلتفت اليها . لقد حرم الله الربا وتوعد المرابين بأوخم العواقب . . لكن خالف الناس منهج الله ففسد اقتصاد الدنيا كلها ، حتى أن الفائدة أصبحت تزيد على رأس المال المدفوع مما أرهق البلاد والعباد ، وبدأ العالم كله يطالب بالغائها .

أشياء لا يفهمها العقل البشرى

نأتى بعد ذلك إلى أشياء فى الكون لا يفهمها العقل . . يقول بعض الناس : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرم لحم الخنزير فلماذا خلقه ؟ . .

نقول إن هذا سؤال قاصر ناتج عن عقل غير مؤمن . الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء فى الكون وله مهمته وهو يؤديها سواء علمنا بها أو لم نعلم .

من قال لكم إن الخنزير خلق لنأكل لحمه ؟ . . ربما خلق لينقى القمامه من ألوف الجراثيم التى لو تركت لتكاثرت وانتشرت ، وأصابت البشرية بآفات كثيرة . وما دام الله سبحانه وتعالى قد حرم لحومها ، فلأنه خلقها لمهام أخرى ليس منها أن يؤكل لحمها . .

إنسان آخر يأتى ليسألك : لماذا خلق الله الثعابين والعقارب والحيوانات المفترسة التى تؤذى البشر ؟ . .

ونقول للسائل انك لم تفهم معنى هذه المخلوقات ، إنها موجودة فى الكون لتلفتك إلى طلاقة قدرة الله فى كونه . لقد ذلل الله سبحانه وتعالى لنا حيوانات كثيرة تخدمنا وتعطينا من متاع الدنيا الكثير ، ولكى لا يفهم الانسان أنه ذلل هذه الحيوانات بقدراته ، أوجد الله تبارك وتعالى حيوانات أخرى لا تخضع للإنسان بقدرته .

ذلك أنك ترى الصبى الصغير يقود الجمل الضخم الذى لو ضربه بخفه لقتله . . ولكن الجمل يستجيب ويخضع خضوعا تاما للصبى ، يقوده كما يريد ، يجعله يمشي متى أراد . . ويبرك متى يريد .

قد يظن بعض الناس أن هذا بقدرات الصبى ، ولكن الحقيقة أنها بقدرة الله سبحانه وتعالى . . هو الذى أخضعها وذللها للإنسان ، وجعلها تطيعه فيما يأمرها به .

وهناك أيضا الثعبان والعقرب مثلا . . حيوانات ضئيلة الحجم جدا بالنسبة للجمل وضئيلة الامكانيات ، ولكن إذا أردت أن تخضعها لك لا تستطيع ، ولو كان إخضاع هذه الحيوانات بإرادتك . . لاستطعت أن تخضع الحيوانات والحشرات التى لم يخضعها الله تبارك وتعالى لارادتك . .

فإذا كان هذا هو حالك ، وهذه قدراتك ، وليست لك قوة ذاتية تخضع به أى شىء فى الكون . . فتأدب مع ربك الذى ذلل لك ما تأخذ منه اللحوم واللبن والأصواف والجلود ، ولا تبارزه بالمعاصى ، فأنت مهما أوتيت من قوة ، عاجز وهو وحده سبحانه وتعالى القادر .

نأتى بعد ذلك إلى الأمراض التى تصيب الانسان . . إن لها حكمة يغفل عنها الناس . إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت الجبارين فى الأرض ، الذين يغترون بقوتهم وبما آتاهم الله من القوة والعزة فى الدنيا ، يريد أن يلفتهم إلى أنه لو شاء لسلط عليهم أدق مخلوقاته ، تلك التى لا ترى بالعين المجردة فتسلبهم القدرة على الحركة ، وتجعلهم غير قادرين على مغادرة

الفراش ، وتسبب لهم آلاما كثيرة ، حتى لا يغتر الانسان بقدرته وقوته وجبروته ، ويعرف مدى تفاهته أمام قدرة الله سبحانه وتعالى . . يتذكر أنه سيلاقى ربه ، فيعمل حساب ذلك اليوم الذى لن تكون له فيه قدرة ولا قوة ولا ناصر ، ذلك اليوم الذى وصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾

(الآيتان ٩ و ١٠ سورة الطارق)

إن بعض الأمراض تشير إلى عدل الله فى كونه . . فالذى أسرف فى أكل الطعام مثلا أخذ أكثر من حقه من نعمة الطعام ، فيأتى الله سبحانه وتعالى لأحد من الناس فى فترة من عمره ويصيبه بمرض يحرم فيه من الطعام . . ليلفته تبارك وتعالى إلى أنه قد أخذ ـ لعدة سنوات ـ أكثر من حقه . . ولكى يحدث التوازن . . لابد أن يأخذ ـ لعدة سنوات ـ أقل من حقه .

وعلى سبيل المثال فإن بعض الذى أسرف فى أكل الحلوى والسكر يصاب بمرض السكر ، فيمنع من تناول أى صنف من الحلوى ، أو من تناول السكر . الذى كان يأخذ الرغيف الأبيض الفاخرويترك السن . . تأتى عليه فترة لا يستطيع أن يأكل الا العيش السن الذى رفض أن يتناوله عدة سنوات طويلة . . ولذلك فالحق جل جلاله يقول :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الاعراف)

وما دام الحق تبارك وتعالى أمرنا بالاعتدال ، فإن الذى

يخرج عن الاعتدال فى أي شيء يأتى له ما يصحح مسيرته قهرا . فالذى يسرف فى السهر مثلا يهلك صحته حتى تمر عليه فترة لا يستطيع مغادرة الفراش . وشاء عدل الله جل جلاله . . أن يعوض المريض عن مرضه كما جاء فى الحديث القدسى :

إنَّ الله عَزَّ وَجلَّ يَقُولُ يَوْمَ القِيامة :
يَا ابْنَ آدَمَ . مَرِضتُ فَلَمْ تَعُدْنِي . قَالَ : يَارَبُّ ، وَكَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ ؟ قَالَ : أما عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِى فُلاناً مَرِضَ فَلَمْ تعُدْهُ . أَماَ عَلِمْتَ أنَّكَ لَوْ عُدْتَه لَوَجدتَنِي عِنْدَهُ ؟
يَاابْنَ آدَمَ . اسْتَطْعَمْتُكَ فِلَمْ تُطْعِمْنِي . قَالَ : يَارَبُّ . وَكَيْفَ أطْعُمِكَ وَأنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ ؟ قَالَ : أما عَلِمْتَ أَنَّهُ اَسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنَ فَلَمْ تَطْعِمهُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لَوْ اَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ؟
يَا ابنَ آدَمَ . اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي . قَالَ : يَارب ، كَيْفَ أَسْقِيَك وَأَنْت رَبُّ العَالَمِينَ ؟ قَالَ : اسْتِسْقَاكَ عَبْدِى فَلاَنُ فَلَمْ تَسْقِه . أَماَ إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكِ عِنْدِى .

إن كل مريض قريب من الله يعوضه الله عن مرضه ، بأن يكون فى معيته جل جلاله ، ويخفف له من العذاب فى الآخرة بقدر ما تحمل من مشقة فى المرض ، وهذا تعويض كبير وميزة هائلة . . أن تكون فى معية الله ، كما أن الله سبحانه وتعالى يسخر لكل مريض من يخدمه سواء كان من أهله أو من غير أهله ليعوضه عما سلبه المرض من قدرة وقوة .

نأتى بعد ذلك إلى الذين يصابون بالعاهات . شخص وُلد أعمى أو أعرج ، أو مشلول القدمين أو غير ذلك .. أليس هذا شرا ؟.

نقول لمن يقول هذا إنك لم تفهم عن الله . هناك كون أعلى إذا اختل ، تصاب البشرية بكارثة عظمى .. كالشمس والنجوم والأقمار وغيرها .. لو اصطدم ببعضها البعض .. أو انفجرت الشمس مثلا ، فإن الكون كله يصاب بكارثة تنهى الحياة على الأرض .. ولذلك فإن الكون الأعلى خلقه الله سبحانه وتعالى غاية فى الدقة والنظام .. لا يختل ثانية واحدة .. وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(الآية ٤٠ سورة يس)

هذا الكون خلقه الله جل جلاله على نظام لا يختل ليؤدى مهمته كاملة ، وهناك الحياة الدنيا ، وإنها لا تؤثر فى نظام الكون ، وإنما هى مكونة من أفراد يكونون قبائل وأمما وشعوبا .. تقضى المقادير أن يصاب أقل القليل منهم بالعمى ، أو عدم القدرة على النطق ، أو بعدم القدرة على الحركة وفق حكمة الهية عليا لا ندرك كنهها .. وذلك لهدفين يريد الحق أن يلفتنا اليهما .

الهدف الأول أن ترى نعم الله سبحانه وتعالى عليك فى هذا الذى ابتلاه الله . فإذا رأيت إنسانا أعمى تقول . . الحمد لله الذى نجانى مما أبتلى به عددا من خلقه . . وتحس بنعمة الله عليك وتشكره ، وقد تتوب عن المعصية . . شكرا لله على نعمه عليك . .

كذلك إذا رأيت إنسانا لا يقدر على الحركة . . تتجه إلى السماء وتقول شكرا لك يا رب ، لقد خلقتنى قادرا على الحركة . ولكن اذا لم تقابل أحدا . . من هؤلاء بين فترة وأخرى . . أتتذكر نعم الله عليك ؟ . . طبعا لا . . لأنك فى زحام الدنيا تنسى هذه النعم . ان الله سبحانه وتعالى قد وهبها لك . . ويضعف إيمانك . . فيجىء هؤلاء الناس ليذكروك لعلك تفيق .

والهدف الثانى الذى يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا اليه هو أن نعرف أن كل عضو من أجسادنا لا يعمل بقدراتنا الذاتية ، ولكنه يعمل بتسخير الله له ليفعل . .

أنت تقول أنا أبصر بعينى . . فأوجد الله تبارك وتعالى من له عينان ولا يبصران حتى تعرف أنك تبصر بقدرة الله الذى يمنح العين خاصية الأبصار . .

وتقول أنا أمشى بقدمى ، ولذلك أوجد الحق جل جلاله من له قدمان ولا يمشى ، حتى تعرف أنك تمشى بقدرة الله التى أعطاها لقدميك . .

الله سبحانه وتعالى يريد دائما أن يطرد الغرور من أنفسنا ، لأن الغرور بداية الكفر . . فما دام الإنسان قد اغتر وحسب أنه استغنى عن الله ، فإنه لا يلتفت الى طاعة الله ورضاه . . ! ! ولماذا يلتفت ما دام هو قادر بذاته على أن يفعل ما يشاء . .

ان الله سبحانه وتعالى يريد ـ برحمته ـ أن يحمى عباده من الغرور ومن البعد عن الله ، فيذكرهم بأن اللسان لا ينطق إلا بإذن الله . . والعين لا تبصر الا باذن الله . . والقدم لا تمشى إلا بإذن الله .

لقد تضاربت مدارس الفلسفة فى تفسير قدرة الله . . فقالت احدى هذه المدارس . . إن قدرة الحق سبحانه وتعالى لا يؤكدها إلا كون ثابت يعتمد على نظام دقيق . . لا يختل ثانية واحدة . .

وقالت مدرسة أخرى . . أنه لا يمكن أن يكون الكون الذى خلقه الله سبحانه وتعالى إلا متغيرا لا يعتمد على دقة الحركة ورتابتها . . لأن هذه هي ميكانيكية الحركة . . ولكن الله جل جلاله قائم على كونه يبدل ويغير كما شاء ، لأن إرادة الحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن تكون مقيدة بقوانين ، وميكانيكية الحركة وعدم تغيرها ، تجعل الكون مقيدا بقوانين ثابتة ، ولكن التغير يعطينا طلاقة قدرة الله فى كونه .

ورغم أن النظريتين متضادتان . . فإن الله تبارك وتعالى قد

أوجد هذا وأوجد ذاك . . فجعل (الدقة) فى الكون الأعلى ، وجعل (التغير) فى الكون الأسفل ، حتى يثبت جل جلاله أن له (دقة الخلق وطلاقة القدرة معا) .

ولذلك فإن كل هؤلاء الذين نراهم عجزة أو معوقين ـ وهم قلة ـ يعطوننا الدليل على طلاقة قدرة الله فى كونه ، وفى أنه يخلق ما يشاء ، وأن كل شىء هو منه سبحانه . . إن أراد أوجده . . وإن لم يرد أذهبه .

وقد يتساءل بعض الناس . . وما ذنب هؤلاء أن يعانوا ؟ نقول لهم : أن الله يعوضهم بمواهب تجعلهم متساوين مع الاصحاء فى الميزات ، يعطيهم قدرات غير عادية . تعوضهم عن النقص الذى يعانونه . . ويفتح لهم فى قلوب خلقه فيجعلهم موضع الرعاية والعناية من الجميع . . ولذلك قيل (كل ذى عاهة جبار) لأن الله يعطيه من القدرة ما يعوضه عما فقد ، ويجعله متميزا فى أشياء لا يقدر عليها الأصحاء .

والأمثلة على ذلك عديدة . . تيمورلنك . . الذى دوخ العالم بحروبه وغزواته كان أعرج ، ومع ذلك كانت له قدرة عسكرية تفوق كثيرا من العسكريين الأصحاء ، فهزمهم وتغلب عليهم .

وهنا لنا وقفة .. وماذا عن المجنون ؟ .. إن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان بالعقل ، والمجنون لا عقل له .. أي أنه مسلوب مما يميز البشر .. نقول : إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن العقل مخلوق لله ، وليس من ذاتية الانسان . فهذا العقل الذى يرث الحضارات ، ويصنع التقدم فى الدنيا ، قدراته مسخرة لك من الله ، وليست قدرات ذاتية منك .. حتى لا تغتر بعقلك وذكائك .. وتحسب أنك تستطيع بهذا العقل أن تستغنى عن الله ، أو أن تشرع لنفسك أحسن مما شرع الله لك .

ومع أن الله تبارك وتعالى خلق العقل للاختيار بين البدائل إلا أننا لم نلتزم بمهمته فى الحياة ، بل جعلناه يخطط منهجا بشريا نستغنى به عن منهج الله .. ويحاول أن يضع حياة على الأرض يعتقد أن فيها صلاح الدنيا ، ولكنها فى الحقيقة تفسد كل شىء .

قد يقال وما ذنب المجنون ؟ .. نقول أن الله أعطاه ميزة كبرى هى أنه لا يحاسب فى الدنيا والآخرة .. ففى الدنيا قد يشتمك المجنون ، أو يقذفك بحجر أو يفعل أي شىء ، ولكنك لا تحاسبه ، بل ربما ضحكت من تصرفاته .. وتقبلتها على أنها تصرفات لا تعنى المقصود منها ، لأن صاحبها لا يعقل ..

يشتمك المجنون فتضحك ، وقد يمسك بملابسك فلا تغضب ، ليس له حساب فى الدنيا . . أما فى الآخرة . . فهو يدخل الجنة بلا حساب . . كل البشر يحاسبون ما عدا فاقد العقل ، إنه لا يحاسبه على اى شيء فعله ، لأن أساس الحساب هو الاختيار ، والمجنون فقد آلة الاختيار .

هذه هى بعض الخواطر . حول الخير والشر والكون . . انها توضح لنا دقة الميزان الذى وضعت عليه الحياة . . انه ميزان دقيق يعطى بالعدل ، لا يسلب من أحد ميزة إلا أعطاه ميزات . . كل شيء فى الكون له مهمة وهدف . . وسواء أدركنا هذه المهمة . . أو لم ندرك هذا الهدف . . فإن كل مخلوق يؤدى مهمته فى الحياة . . دون أن ينتظر فهمنا أو موافقتنا . . ولكن الظلم الذى قد يحس به بعض الناس انما يأتى من عدم الفهم ، أو هو حدوث تصادم بين واقعهم وشهوات كانوا يريدون تحقيقها ولم يحققها الله لهم لحكمة خفيت عنهم .

والسعادة فى الحياة . . أن يرضى الإنسان بقدر الله . . فهذا الرضا هو الذى يضع السعادة فى حياة الناس . . أما عدم الرضا بقضاء الله . . فإنه يورث الشقاء .

وإقرأ الحديث القدسى عن رب العزة : (عبدى أنا أريد وأنت تريد . . فإن رضيت بما أريد أغنيتك عما تريد ، وإن لم ترض بما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد) .

وهكذا رضيت أم لم ترض ، فإن أمر الله سبحانه وتعالى نافذ ، ولكن الرضا بقضاء الله هو الذى يعطيك الخير فى

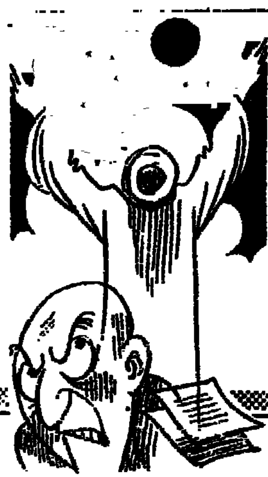
الدنيا ، والسخط على قضاء الله هو الذى يعطيك الشقاء والعذاب فى الدنيا والآخرة .

هذا هو معنى الخير والشر بالنسبة لأحداث الكون . إن عدل الله جل جلاله لا يمكن أن يميز إنسانا على انسان الا بالعمل الصالح ، أما ما يحدث لنا مما نعتقد أن فيه اجحافا وظلما لنا . . فهو سوء تقدير وغفلة منها والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(الآية ٤٤ سورة يونس)

الفصل السادس



الخير والشر فى الآخرة

الخير هو ما عند الله ، وكل شيء لا يقربك لله ، ولا يعطيك ثواب الآخرة . . ليس خيرا مهما أعطاك فى الدنيا ، وكل عمل لا تبتغى به وجه الله هو عمل خسرته ، وحياتك الدنيا لها وقت محدود ستحاسب عليه ، فإن استثمرت عمرك كله فى تطبيق منهج الله . . فقد حصلت على الخير ، واذا أنفقت عمرك كله فى المعصية ونسيت الله . . فقد خسرت وأصابك الشر . . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إذن فالفوز الذى يجب أن نسعى اليه هو النجاة من النار . وكما قلنا إن الحياة الدنيا ليست غاية ، بل هى دار اختبار، تؤدى بك الى الغاية . هذا هو منهج الخير والشر فى الكون كما وضعه الله سبحانه ، وكما أوضحته سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

(لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال : عن شبابه فيما أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه) .

واذا رجعنا الى القرآن الكريم . . نجد أنه قصر الخير على ما عند الله . . واقرأ قوله تبارك وتعالى

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة البقرة)

فاذا انتقلنا الى سورة آل عمران . . نجد ان الحق سبحانه وتعالى يعلمنا كيف نتوجه اليه ، وكيف نشكره ، وكيف نتقرب اليه وكيف نعترف بفضله ، وذلك فى قوله عز وجل :

﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة آل عمران)

أى أن الخير كله بيد الله سبحانه وتعالى وحده . . ولذلك فإن الخير لا يوجد بيد أحد غير يد الله تبارك وتعالى . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾

(من الآية ١٩٨ سورة آل عمران)

واذا كنا قد وصلنا الى هذه النتيجة . . فإننا لابد أن نعلم أن الخير كله بيد الله ، وأن خير الأعمال هى التى يبتغى بها وجه الله . . وأن كل ساعة تمر ولا تقوم فيها بعمل تبتغى به وجه الله ، هى ساعة ضائعة من عمرك ، إنها ساعة أفنيتها دون أن تحقق بها شيئا ، وساعات العمر ـ مهما طالت ـ محدودة ، وكل وقت يمر لا يعود .

ولكن هل الخير فى الدنيا هو خير مطلق ؟

أم لابد أن يكون مرتبطا بالايمان ؟ أى أننا اذا فعلنا الخير دون ايمان بالله وبجميع رسله وكتبه فهل يحسب لنا عند الله سبحانه وتعالى ؟ . .

هناك عدد من الناس عملوا للانسانية . . أولئك الذين اخترعوا وقدموا الاختراعات التى أفادت البشرية كلها ، أو اكتشفوا علاجا لأمراض مستعصية ، كان يشقى بها البشر ، أو تبرعوا مثلا لبناء ملجأ أو مستشفى مجانى ، أو قاموا بإغاثة مجموعة من الناس تعانى ظروفا سيئة . . حدثت مجاعة مثلا فقاموا هم بجمع الأموال ، وأرسلوا الأغذية لهؤلاء الذين أصابتهم المجاعة أو غير ذلك من الأعمال التى أمر بها الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين ، والتى وعدهم عليها بالثواب العظيم فى الاخرة .

هؤلاء الذين قدموا الخير ليس بمنطق الأيمان . . ولكن بمنطق الانسانية وإحساسهم بالآخرين ، ومحاولتهم تخفيف آلام الناس . . أو إغاثتهم . . ما هو حكمهم ؟

نقول إن هؤلاء جميعا ليس لهم عند الله سبحانه وتعالى أجر ، لأنهم عملوا عملا لم يقصدوا به وجه الله . . اى أن عملهم لم يكن من منطلق ايمانى خالص . .

وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾

(الآية ١١٢ سورة طه)

إذن فشرط قبول العمل الصالح هو الايمان ، لابد أن يوجد الايمان أولا ، وأن يبتغى بالعمل وجه الله سبحانه وتعالى ثانيا ، ولذلك فإن الذى يتبرع بمبلغ كبير لجمعية خيرية لأن رئيسة الجمعية زوجها فى منصب هام سيخدمه فى أعماله . . فإن عمله لا يتقبل من الله ، وذلك الذى يدفع المال ليقال عنه المحسن الكبير أو رجل البر والتقوى أو غير ذلك فهو يريد سمعة ولا يريد وجه الله . . فلا جزاء له عند الله تبارك وتعالى .

ان كل هؤلاء الذين يشركون مع الله أغراضا أخرى . . وأهدافا دنيوية لا يفعلون الخير ، رغم أن ظاهر عملهم هو الخير ، ولكنهم اتخذوه وسيلة لتحقيق أهداف أخرى . . والله جل جلاله هو أغنى الشركاء عن الشرك .

ولكن هل يترك الله هذه الأعمال بلا ثواب ؟ . .

الله سبحانه وتعالى بعدله لابد أن يعطى ثوابا عن فعلها . . هذا الثواب لابد أن يكون من جنس عمله . . أى يعطيه الثواب فى الدنيا ، فاذا جاءت الآخرة . . لم يجد له ثوابا ولا عملا صالحا . . ولذلك نجد القرآن الكريم يخبرنا عن هذه الحقيقة . . فيقول :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن

﴿ تُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾

(الآية ١٨ سورة الاسراء)

إذن هؤلاء الذين يعملون الخير ولا يؤمنون بالله ، أو لا يقصدون به وجه الله ، هؤلاء يوف اليهم ثواب هذا العمل فى الدنيا . . فتطلق أسماؤهم على المدن ، وتقام لهم التماثيل فى الميادين . . وترصد لهم الجوائز . . ويدرس تاريخ حياتهم فى مراحل التعليم . . ويصبحون اعلاما ومشاهير . . هذا هو جزاؤهم . . انه من جنس عملهم . .

إن الله تبارك وتعالى يريدنا أن نقابل أحداث الدنيا كلها بقوة الإيمان ، وألا نجزع من أى حدث مهما كان ، ولذلك أعطانا سبحانه وتعالى المقاييس التى نقيس بها الأحداث . . لم يشأ الله برحمته أن يتركنا فى الحياة فى مهب الريح . . يملأ قلوبنا الجزع والخوف ، بل أعطانا المقياس الحقيقى . . الذى به نعمل وعليه نقيس . .

أول شىء طلبه الله سبحانه وتعالى هو أن نجرد أنفسنا من الانفعال بالنسبة لأحداث الدنيا ، وأن نأخذها على أنها ابتلاءات . . أى امتحانات واختبارات من الله سبحانه وتعالى . .

إننا نؤمن أن هذه الاحداث مكتوبة عنده . قبل أن يخلق الأرض ومن عليها ، وأنها أقدار تتنزل فى أزمان مختلفة . . ومطلوب منا ألا نستقبلها بأسى أو بحزن أو بفرح ، وذلك حتى تعتاد نفس المؤمن على ألا تجزع الا من شىء يأتى بغضب الله ، وألا تفرح إلا لشىء يزيد ثوابها عند الله ، وهذا هو المقياس

الحقيقى الذى لابد أن نقيس به ما يحدث .. يقول جل جلاله :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

(الآيتان ٢٢ و ٢٣ سورة الحديد)

هذا هو السلوك الإيمانى الذى أراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا اليه .. ألا يفزعنا شيء من أحداث الدنيا مهما كان ، لأن الدنيا هى عالم أغيار .. أنت اليوم غنى وغدا فقير ، أنت اليوم قوى وغدا ضعيف ، أنت اليوم فى عزة ، وغدا فى ذل ..

هذه الأغيار هى من صفات الحياة الدنيا ، ولذلك يجب أن تتقبلها بمعناها الحقيقى .. فكل أحداث الدنيا لا تدوم . إن كان اليوم مظلما ، فغدا يأتى النور . وإذا كان اليوم معسرا ، فغدا يأتى اليسر . هذه هى معانى الأحداث ، كلها متغيرة ، والشيء الثابت الوحيد .. هو ما تفعله للآخرة .. ذلك هو الشيء الذى لابد أن تحرص عليه ..

كان أحد الصالحين كلما دخل عليه سائل يطلب مالا أو طعاما يستبشر به مع أنه سيأخذ مما عنده ، وكان يقابله متهللا ، ويقول أهلا بمن سيحمل لى حسناتى الى الاخرة ، لأنه يعرف أن هذا السائل إنما جاء لخيره .. وأنه جاء يبقى له ما عنده ، فلو أكل هذا الطعام ، أو أنفق هذه النقود

لضيعها . . ولكنه لو تصدق بها لأبقاها ولتلقى من الله ثوابا عليها فى الآخرة .

لقد علمنا الحق سبحانه وتعالى . . ألا نعطى لأحداث الدنيا المعانى التى تدور داخل أنفسنا . . بل نترك معناها ولا نحاول أن نفلسفها . . فقال جل جلاله :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ١٩ سورة النساء)

إن الله يريد أن يعطينا الوقاية الايمانية للأحداث التى تحيط بنا . . فاذا وقع لنا شىء نكرهه ، نتذكر هذه الآيات ونقول لعل الله قد وضع فى هذا الشىء الذى نكرهه الخير ونحن لا ندرى . . أو لعل الله تبارك وتعالى قد وضع فيما كرهنا حدوثه الخير الكثير . . وهذا يخفف من ألم النفس البشرية عندما يقع عليها شىء تكرهه . . وفى نفس الوقت يجعلنا متفائلين دائما . . ثم أراد الحق جل جلاله فوق ذلك أن يفهمنا أنه فى الأشياء التى نتعامل معها نحن الذين نضع فيها الشر .

وكثيرا ما يسأل الناس أليس التليفزيون شر كبير ؟ أنه يأخذ الناس من أعمالهم ، ومن صلاتهم ومن ذكرهم لله ويلهيهم . ونقول : إننا لا يمكن أن نحكم على التليفزيون أنه شر ، ولكن

استخدام الانسان له هو الذى يحوله الى خير أو شر ، فلو أن التليفزيون علم الناس دينهم ، وبينه لهم وحدثهم عن الصلاة والزكاة وغيرها من أركان الاسلام لكان خيرا ، ولو أنه شغل بالرقص والغناء ، وما يلهى الناس عن دينهم فإنه شر . .

إذن فالتليفزيون فى ذاته . . ليس خيرا ولا شرا . ولكن استخدامنا له هو الذى يضع له المعنى . . كالسكين تماما صالحة لأن تقتل بها إنسانا ، وصالحة لأن تستخدمها فى المطبخ لتقطيع اللحم والخضراوات . ان أنت استخدمتها فى إعداد طعامك . . . فهى خير ، وان استخدمتها فى القتل واهدار الدماء فهى شر . .

الحق تبارك وتعالى ضرب لنا أمثلة فى القرآن الكريم . . فى أننا نحن الذين نعطى المعنى لكل ما هو موجود . . فقال جل جلاله :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(الآية ٦٧ سورة النحل)

لقد أراد الحق تبارك وتعالى أن يبين لنا ان استخدامنا للشىء ، هو الذى يعطيه معنى الخير أو الشر . . وليس الشىء نفسه . . فمثلا العنب والتمر خلقهما الله سبحانه وتعالى ليكونا رزقا حسنا . . يعطينا الطعم الحسن ، والقيمة الغذائية الحسنة وغير ذلك . . ليس فيه شر وليس فيه ضرر للإنسان ، ولكن ماذا فعل البشر ؟

أخذوا هذا الرزق الحسن . . وحولوه الى رزق غير حسن بأن خمروه ، أى صنعوا منه الخمر التى تستر العقل وتمنعه من أداء وظيفته ، والتى هى من أكبر الكبائر ، وأساس للشرور فى الدنيا .

هل خلق الله سبحانه وتعالى التمر والعنب لهذا الغرض ؟ . . هل خلقهما ليعين الانسان على شرب الخمر والمعصية ؟ . . طبعا لا . . اذن من الذى أفسد مهمتهما فى الحياة ؟ وحولهما من رزق حسن الى رزق حرام ؟ . . إنه الانسان الذى أخذ هذه النعم ، وأفسد معناها وأفسد مهمتها ، وجعلها تعين على الإثم والعدوان ، بدلا من أن يجعلها تعين الانسان على ذكر الله وشكره .

الله سبحانه وتعالى . . خلق لنا الشمس لتنير الكون وتبعث الدفء فيه وتعطى النبات والحيوان والانسان ما يحتاجون اليه من أشياء تعينه على أداء مهمته فى الكون . فبالضوء يتنفس الزرع . . ليخرج لنا الاكسوجين ليجعل حياتنا على الأرض ممكنة ، وبالضوء يستطيع الحيوان أن يؤدى مهمته فى الحياة . . من حرث وحمل متاع وغير ذلك ، والإنسان يسعى على ضوئها ويعمل . لتزداد عمارة الأرض ، ويحصل على الدفء الذى هو محتاج اليه فى حياته . لكن جاء بعض الناس فعبدوا الشمس ، وبذلك حولوها من ررق حسن إلى معين على الكفر وعلى عبادة غير الله ! ، إن الشمس لم تأمرهم بذلك . . لا هى فى يوم الأيام قالت أعبدونى ، ولا أرسلت رسلا من البشر ليأمروا الناس بعبادتها ، ولا هى أرسلت منهجا يبين للناس طريقة عبادتها . . إنها لم تفعل شيئا من ذلك . . بل هى مقهورة مسبحة تؤدى دورها فى الكون بمنتهى الدقة . . ولكن الإنسان هو الذى جاء بالفساد .

وكذلك الأحجار . . إن لها منافع كثيرة ، ولكن الناس صنعوا منها الأصنام التى يعبدونها ! إن الأشياء الموجودة فى الكون ليست مفسدة ، بل هى صالحة ولها مهمة تؤديها على أكمل وجه ، ولكن الفساد جاء من الإنسان ، والشرك جاء من الإنسان ، والكفر جاء من الإنسان .

وعلى أساس هذه المعانى لابد أن نأخذ الحياة الدنيا . . ولا نأخذ لها أسسا فاسدة من عندنا .. ولكن من الذى وضع هذه الأسس ؟ . . إنه بلا شك ذلك المفسد فى الكون ، الذى يريد الانتفاع انتفاعا ذاتيا محدودا . . والذى يريد سلطة زمنية يكون فيها هو السيد . فالذى استخدم السكين فى القتل ، كان هدفه أن يحصل على مال لا يستحقه ، والذى دعا إلى عبادة الشمس ، كان هدفه أن يكون كبير الكهنة . . يأتيه الخير من الناس بلا عمل . . والذى دعا لعبادة الاصنام ، كان هدفه أن يصبح سيدا . . يخافه الناس ويتقربون اليه . . لأنه خادم الآلهة . فالذى يدعو إلى باطل يبحث أولا عن فائدة دنيويه يحققها من هذا الباطل . . فائدة ترفعه الى مرتبة أصحاب المال والنفوذ دون أن يعمل شيئا يستحق عليه هذا المال أو هذا النفوذ . .

لكن الذى يدعو إلى الله هو الذى ينفق على الدعوة ولا يأخذ منها ، وينفق عليها وهو سعيد . . ويدفع من ماله وهو مسرور ، وهو أول من يتحمل مشاق التكليف والعبادة ، وكل أمنيته أن يتقبل الله عمله الصالح .

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن مقاييسنا مختلة فقال تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

وفى هذا تصحيح لمفهوم انفاق المال فى الحياة . فالشيطان مهمته أن يجعل الناس يخشون الانفاق فى سبيل الله خوفا من الفقر ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما نقص مال من صدقه) . . إذن فالصدقة لا تنقص المال أبدا ، بل تنميه وتجعل فيه بركة . والبركة أن يعطيك الشيء اكثر مما توقعته منه . . أو أكثر من العطاء العادى .

وعطاء البركة دائما يعطيه الله للمؤمنين . . فتجد الرزق قليلا ، ولكنه يغطى لك كل الحاجات وكل النفقات . . فالطعام الذى يكفى لاثنين . . يأكله خمسة ويشبعون . . والقليل من الرزق يقنع هؤلاء ، فلا يمدون أعينهم ، ولا يخطر على بالهم ، ولا يشتاقون الى ما فوق طاقتهم . . بل تجد الواحد منهم حياته سعيدة . . مرتاح البال هادىء النفس . . قرين العين دائم الصلة بالله . . يمنع الله سبحانه وتعالى عنهم منغصات الحياة ، فاذا مرض أحدهم مثلا . . يكفى أن يأخذ قرصا من الاسبرين وكوب شاى ليشفى من مرضه . . بينما ذلك الذى لا يتصدق اذا مرض ابنه انزعج وأحضر عددا كبيرا من الأطباء ، وأنفق الكثير من المال . . وربما لا يتم الشفاء .

. . إذن فالبركة فى الرزق تكون أحيانا بالعطاء . . بأن يعطى الله الانسان مالا كثيرا ، وأحيانا بالسلب ، بأن يبعد عنه كل مهلكات المال . . فتجد ابنه ينجح بدون دروس خصوصية ، بينما غيره ربما أنفق مئات الجنيهات على الدروس الخصوصية . . ولا ينجح ولا يتفوق . . وتجد أولاده مثلا لا يمكن أن يجذبهم قرناء السوء الى الشر . . فلا يقرب احدهم مثلا القمار أو المخدرات . . أو غير ذلك من الآفات التى تهلك

المال والجسم ، وتجد زوجة وأولاد هذا الرجل اذا أحضر لهم ملابس رخيصة وبسيطة .. يفرحون بها ويكونون سعداء ..

أما هؤلاء الذين لا يرعون الله فى مالهم ، فالسخط وعدم الرضا يفسد حياتهم . فتجد الواحد منهم يحضر لزوجته فستانا بمئات الجنيهات فتلقيه فى وجهه وهى مشمئزة ، ولا يأخذ من هذا الا الشقاء وعدم الرضا ..

إن علينا أن ندرك أن نعم الله لا تكون بكثرة العطاء فقط ، ولكن تكون ايضا بإبعاد مهلكات المال عنك .. فيجعل الله سبحانه وتعالى المال وفيرا على قلته .. يكفى الجميع ويسعدهم .. تلك من عطاءات الله جل جلاله بالخير ..

ان الانسان الذى يمسك ماله ولا ينفقه ولا يتصدق منه ، يظن أنه يفعل لنفسه خيرا ولكنه فى الحقيقة يفعل شرا .. فلا هو تقرب الى الله بماله .. ولا المال سيبقى معه .. لأنه سيتركه عندما ينتهى عمره .

قمة الشر فى الدنيا .. الكفر

وقمة الشر فى الدنيا . . هى الكفر . . ذلك أنه لا يوجد شر أكبر من ذلك ، لأنه ليس بعد الكفر ذنب . . ولأن هذا الكافر قد ارتكب ما يجعل الله يطرده من رحمته . . ولذلك يقول الله جل جلاله .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(الآية ٤٨ سورة النساء)

فمن دخل فى الشرك أو الكفر وأعطى الدنيا كلها فهى شر له ، لأنه مهما أخذ ، فمتاع الدنيا قليل . . ومهما كان حوله المال والجاه والسلطان مفارقه . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(الآية ٥٥ سورة الانفال)

ونحن نعرف أن الدابة لا عقل لها ، فهى لا تستطيع أن تفكر ، ولا يمكن أن تعقل الأشياء ، ولذلك فهى محكومة بالغريزة ، والغريزة حكمها صادق ، فإذا أحضرت الطعام لدابة من الدواب . . تجدها تأخذ ما يكفيها ثم تتوقف عن الطعام ، فإذا حاولت أن تغريها بأى طعام فهى ترفضه مهما كان ، لأن حكم الغريزة حكم صادق ، يعطى للحيوان احتياجاته فقط . .

وبالنسبة للدواب تجدها لا تمارس الجنس الا لحفظ النوع ، فاذا حملت الدابة الأنثى فهى لا تسمح لذكر أن يقترب منها ، ولكن الذين كفروا وصفهم الله بأنهم شر الدواب ، والدواب جمع دابة ، والدابة هى كل ما يدب على الأرض .

لماذا هم شر الدواب ؟ . . لأن الدواب التى لا عقل لها ، لها مهمة فى الدنيا لا تستخدم فيها العقل ، ولكنها تؤدى مهمتها كاملة . . تحمل الأثقال وتؤدى كل ما هو مطلوب منها . . أو كل ما خلقت من أجله .

ولكن الإنسان الذى أعطى الاختيار تجده قد ملأ معدته بالطعام ، فيقال له أنت لم تتناول الحلوى ، أو أنت لم تذق هذا الصنف ، فلا يحترم مبدأ أن الله نهانا عن الاسراف فى الطعام ، ويتخم معدته حتى لا يستطيع الحركة ، ويحول الجنس الى متعة . . وليس الى وسيلة لحفظ النوع . .

لقد ميز الله تبارك وتعالى الانسان بالعقل حتى يتدبر آياته فى الكون ، ويؤمن بأن لهذا الكون خالقا موجدا ، ولكنه بدلا من ذلك يتخذ هذا العقل وسيلة للكفر والالحاد فيبعده عن الله ، ويورثه المعصية . . فكأنه قد ألغى الميزة الكبرى التى وهبها الله للانسان . . بل وحولها الى عكس وظيفتها ، فيكون بذلك أشر من يدب على الأرض !.

وفى الختام نقول بإجمال : ان المعنى الحقيقى للخير والشر فى الدنيا والآخرة من وجهة نظر الدين . . انه العمل الصالح الذى يقصد به وجه الله ويرجو به عطاء الآخرة . . فكل ما جاء من عند الله هو الخير . . وكل ما يقصد به وجه الله هو

الخير ، وأن الشر فى الكون قد جاء من اختيارات الانسان . . الذى أفسد الكون ، وأفسد الحياة فيه ، وأفسد قوانينه . . ظنا منه أنه يصلح ، وفى الحقيقة هو يفسد ، وأن الله سبحانه وتعالى أوجد لنا الأشياءالنافعة والنعم الكثيرة . . ولكننا أفسدناها . . بتحويلها الى ادوات لشقاء البشرية ، وأن الانسان يعانى من اختيارات الانسان . . وأن فى الكون ما يكفى لكل خلق الله . . منذ آدم الى قيام الساعة ، ولكن الأنانية هى التى أفسدت كل شىء ، فجعلت بعض الناس يهلكون خيرات الله . . بدلا من أن يعطوها لمن يحتاج اليها ، وأن الدنيا هى وسيلة للآخرة . . تؤدى بك إلى الجنة أو النار والعياذ بالله . . فاذا تحولت عن وظيفتها لتصبح غاية أورثت الانسان الشقاء ، وجعلته يهلك قواه ونفسه ، ويغضب ربه ويعصيه ثم لا يأخذ منها شيئا .

إن الخير فيما اختاره الله ، والانسان لا يملك العلم ولا المعرفة ليجعل نفسه حكما على الأحداث . . ذلك انه لا يملك الزمن المستقبل ليعرف نتيجة ما يحدث اليوم ، وأن كراهيتنا للأشياء لا يجب أن نأخذها مقياسا لأن هذا الشىء شر ، لأننا قد نكره شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، وقد نحب شيئا ويجعل الله فيه شرا كبيرا . . وأننا اذا أردنا السعادة فى الدنيا والآخرة . . فلابد أن نرضى بقضاء الله . . لأن قضاء الله سبحانه وتعالى دائما خير . ومن رضى به هُدِىَ الى صراط مستقيم .

الفهرست